نورا إكستينا

حليب سوفييتي

رواية

ترجمة: ضحوك رقية

حليب سوفييتي

نورا إكستينا

رواية

ترجمة:

ضحوك رقية

حليب سوفييتي - رواية Mātes piens

تأليف: نورا إكستينا Nora Ikstena

English Title: Soviet Milk

ترجمتـــها إلــى الإنكليزيــة: مــارغيتا غــيليتيس Translated by:Margita Gailitis

ترجمتها إلى العربية: ضحوك رقية

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

978 - 9933 - 641 - 00 - 9 :ISBN

الطبعة الأولى: 2019

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: /9838/

هاتف-فاكس: /6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

حليب سوفييتي

لا أتذكر يوم الخامس عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 1969. ثمة أناس يقسمون أنهم يتذكرون ولادتهم. أما أنا، فلا. على الأرجح، كنت متموضعة بشكل مناسب في رحم أمي؛ لأن الولادة كانت طبيعية؛ إذ لم تستغرق وقتاً طويلاً جداً -ولا قصيراً جداً- حتى الطلق الأخير الذي تواتر كل خمس دقائق. كانت أمي في الخامسة والعشرين من عمرها: شابة، وبصحة جيدة. لكن صحتها العقلية، كما عرفت لاحقاً، لم تكن على ما يرام.

أتذكر، أو أستطيع أن أتخيل على الأقل، هدوء تشرين الأول/أكتوبر الذهبي اللطيف، يتخلله القلق من فترة الظلام الطويلة. إنه بمثابة شهر حدودي في مناخ خط العرض هذا على الأقل، حيث تتبدل الفصول ببطء، والخريف يُخلي مكانه تدريجياً للشتاء.

ربما كانت أوراق الأشجار تتساقط، وحرقتها في الفناء ناطورة بنايتنا سيئة المزاج. كانت قد جاءت من قيرغيزستان مع عائلتها، وخُصصت لها شقة في بنايتنا في شارع ميكورينا 20. جلست طفلتها ذات العيون الآسيوية الضيقة على حافة النافذة، تلتهم حساء البورش، وبفرح تدعو الجميع إلى منزلهم. فخامة ما قبل الحرب عُدّلت في الشقة؛ لتعكس فكرة المرأة القيرغيزية عن الجمال. لقد هجر القاطنون السابقون، وهم عائلة يهودية، الشقة في العام 1941، حين أنقذهم الترحيل إلى سيبيريا من الاضطرار إلى وضع النجوم الصفراء على ظهورهم في ريغا، التي احتلها النازيون بعد عدة أشهر. حالياً، غطى السجاد السميك الأرضية الخشبية، وامتلأت الصحون الخزفية ببذور عباد الشمس، وانتصبت المباصق على غطاء البيانو. لقد امتزجت الأزمان والأديان. وهكذا كان الحال في المبنى كله، عندما حُملتُ إلى الشقة الثالثة عشرة، مقمطة بعناية مثل شرنقة، كما جرت العادة في تلك الأوقات.

أحلم بين الحين والآخر حلماً، أصحو منه وأنا أشعر بالغثيان. أتشبث خلاله بصدر أمي، وأحاول أن أرضع منه، ويكون الصدر

0%

ضخماً ومليئاً بالحليب، لكني لا أستطيع استخراج قطرة واحدة، لا أرى أمي، وهي لا تساعدني، وأُترك وحدي أصارع ثديها، ثم أنجح فجأة، ويتدفق في فمي سائل مر وكريه؛ فأتقيأ، وأستيقظ فزعة.

كانت أمي طبيبة شابة، لعلها عرفت أن حليبها سوف يضر طفلتها أكثر مما ينفعها؛ وإلا كيف يُفسر اختفاؤها من المنزل بعد الولادة مباشرة؟ لقد اختفت مدة خمسة أيام، ثم عادت بثديين ملتهبين، وتوقف حليبها عن التدفق.

أرضعتني جدتي يائسة شاي البابونج مدة يومين. ثم ذهبت بعد ذلك إلى عيادة الرضع؛ فوبّخها باللغة الروسية الطبيب المرتاب، وشتم أمي على تركها إياي. لكنه كتب لها -في نهاية الأمر- ورقة تمكنها من تلقي حليب الأطفال من أجلي.

لم أتمكن خلال العشرين سنة، التي عشتها مع أمي، من سؤالها عن سبب حرماني من ثديها. لم أتمكن؛ لأنني لم أكن أعرف بعد، أنها قد فعلت ذلك، وكان سيعتبر سؤالاً في غير محله؛ لأنه كما اتضح فيما بعد: أني أنا من سيؤدي دور الأم.

*

لا أتذكر يوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 1944، لكني أستطيع إعادة تركيبه: لقد تحررت ريغا من النازيين، وحطمت القنابل نوافذ جناح التوليد، الطقس رطب وبارد، وبيأس تلفّ النساء اللواتي ولدّن للتو أنفسهن بشراشفهن المدماة، الممرضات والأطباء المنهكون يكفّنون المواليد الأموات، يشربون وهم يعملون، يجتاح المستشفى وباء، يسميه الجميع حمى التيفوئيد الخطيرة. أصوات عويل، وصفير قنابل في الجو، وروائح الاحتراق تتسرّب من النوافذ. هربتني والدتي من الجناح، وهي تضمني بقوة إلى صدرها، وترش حليبها على أنفي؛ فيسيل قيح وحليب ودم من أنفي الصغير؛ فأتقيأ وأتنفس، وأتقيأ وأتنفس.

يسود الصمت بعد ذلك. حصان يجر عربة على طريق خريفي مشمس من ريغا إلى بابيت في الضواحي. يتوقف أبي عدة مرات؛ ليتيح لأمي إرضاعي. لم أعد أتقيأ، بل أتنفس بهدوء، وأمتص حليب أمي بشراهة. لدينا منزل جميل في منطقة غابات بابيت، مفروش بالكاد، ولا يوجد فيه مهد، لكن أمي أعدت لي سريراً في حقيبة سفر.

يتفقد والدي أشجار التنوب الصغيرة كل صباح. وهذا ما استمر حتى عيد الميلاد، عندما هدرت شاحنة ثقيلة مليئة بالجنود، يصرخون بلغة لا يفهمها والداي، ثم يقفزون من الشاحنة ويبدؤون بقطع أشجار التنوب الصغيرة. يحبسنا أبي، أنا وأمي، في الغرفة الخلفية حيث تخبئني في حقيبة فيها ثقوب؛ لأتمكن من التنفس. يركض والدي خارجاً من المنزل، وهو يصرخ: أيها الأوباش، أيها الأوغاد! ويحاول إنقاذ أشجار التنوب. يضربه الجنود حتى يدموه، ويرموه في الشاحنة مع الأشجار المقطوعة. بعد ذلك يفتشون المنزل، ويخبطون على جميع الأبواب. تجثم أمي في خزانة حابسة أنفاسها في الغرفة المقفلة، وهي تضع الحقيبة التي أنا فيها على ركبتيها. ينهب الجنود المنزل، الضوضاء مروعة. يهدأ كل شيء أخيراً، ونسمع هدير المحرك وهم يغادرون.

تخرج أمي من خزانة الملابس مع حلول الصباح. ترضعني، وتضمني إليها، ترتدي ملابس دافئة، وتعود إلى ريغا سيراً على الأقدام. نصل في ساعة متأخرة من المساء إلى شقتنا في شارع تومسونا، الذي سيتغير اسمه ليصبح شارع ميكورينا. أمي منهكة، لكن عليها وضع اللاصق على النوافذ التي تحطمت جراء غارة جوية، وإلا سنتجمد كلتانا.

*

لا أعرف كيف تعاملت أمي وجدتي مع اختفاء أمي في ذلك الوقت، ولم يُذكر ذلك مطلقاً. حلت رائحة الدواء والمطهر محل رائحة حليب الأم طوال فترة طفولتي. خيمت روائح هذه المواد

الكيميائية على أمي مثل سحابة. كانت هناك، عندما عادت من المناوبات الليلية المرهقة في مستشفى التوليد، وبقيت في المنزل، عندما استغرقت في النوم بعد ساعات طويلة من الأرق. حقيبة يدها مليئة بأقراص الدواء والحقن وأدوات معدنية مختلفة، تعرفت إليها لاحقاً وعلمت أنها أدوات أطباء النسائية المرعبة. كان عالماً رهيباً. إن صدف وجود أمي في المنزل ليلاً، فإنها كانت تجلس، تدخن وتشرب القهوة، منكبة فوق جبل من الكتب الطبية المضاءة بمصباح. عُلّق فوق مكتبها رسوم إيضاحية، لأرحام ومبايض وأحواض ومهابل، من زوايا ومنظورات مختلفة.

لم تعرف أمي شيئاً خارج هذا العالم. تغلق بابها قصداً عندما يعرض برنامج «فيرمايا- الزمن» في التلفاز، مع ليونيد إيليتش بريجنيف الألثغ. لم تقرأ صحيفة ريغا فويس التي يصطف من أجلها طابور طويل، كل مساء، في زاوية شارع غوركي. ولم تعرف عن الطابور الذي يساويه في الطول في فترة الغداء عند متاجر اللحوم والألبان، حيث يمكن شراء الزبدة والنقانق الشعبية التي تدعى نقانق الطبيب. أمي، ليس لديها أي فكرة عن عالم المدينة المألوف هذا. لكن رواية موبي ديك المقروء نصفها، كانت باقية بجانب جبال الكتب الطبية. عبرت الرواية عن توقها إلى الحياة العاقلة التي ظلت عصية عليها.

لا أتذكر أن أمي عانقتني قط، لكني أتذكر فخذها المثقب بالإبر، الذي تدربت عليه لإعطاء الحقن. أتذكرها في السرير بشفاه مزرقة حين أخذت أول جرعة زائدة، ربما كانت جزءاً من تجربة طبية ما. أتذكر رائحة المحلول الطبي اللاذعة التي فاحت من ثوب نومها قبل نقلها إلى المستشفى. وأتذكر ممر مستشفى التوليد، حيث سُمح لي بمقابلتها بعد مناوباتها الليلية، لنتوجه بعد ذلك إلى أحد مقاهي شارع ألوجا، ونأكل حساء السولينكا ونقانق كوباتي، وتضيف الكافيين إلى قهوتها من حقنة ما. أتذكر أيضاً، كيف بدا شارعنا متجمداً مع مرور الزمن، مثل صورة اقتطعت من زمن آخر، وألصقت اليوم، ولم يغب عنها سوى الشخصيات

المتأنقة التي كانت ترتاد السباقات في المضمار القريب. كانت أنواعاً أخرى من الناس تحث الخُطى نحو الشيوعية، رؤوسهم محنية، سواء كانوا في عملهم أو في طريقهم إلى العمل أو إلى المنزل، أكياسهم الشبكية مليئة بمؤن متواضعة: أرغفة طويلة، وزجاجات حليب الكفير ذات أغطية خضراء فاقعة، ورزم الغسيل الملفوفة بورق رمادي معقود بخيط.

*

مرت تسع سنوات -على الأقل- على حادثة قطع أشجار التنوب الصغيرة. كنت من بين أفضل الطلاب؛ لذا أعطيت دوراً في احتفال الطابور الصباحي: حملت حرف نون ضخم، وشكلت مع زملائي عبارة «نحن من أجل السلام». كانت أمي تجهز لي في كل صباح، مريلة نظيفة مكوية، وتسرح شعري، إما في ضفيرتين تتدليان على ظهري، أو تعقده وتثبته خلف أذني. لقد دللتني. ذات يوم، ظهر رجل طويل لطيف في شقتنا. قالت والدتي: «هذا زوج أمك». ورأيت أمي تبكي أول مرة، عندما غادر في ذلك المساء. جلست في مطبخنا الطويل الضيق المطل على الفناء، كان الجو معطراً برائحة اليقطين الذي يغلي في قدر على موقد الحطب.

رفعت عينيها، وقالت: «اقتيد أبوك العزيز بعيداً؛ لأنه حاول إنقاذ أشجار تنوبه العزيزة، هل كان مضطراً لفعل ذلك؟ لو أنه لم يخرج، لو لم يحاول منعهم، لكان لا يزال معنا. لكنه أحب الغابة وأشجار التنوب خاصته، وخرج مسرعاً. ضُرب، واقتيد بعيداً. بحثت عنه مدة ثلاثة أيام، ووجدته في محطة سيكروتوفا محبوساً في عربة، ستنقله إلى سيبيريا. وصل إليّ من خلال القضبان وهو مشوه بالجروح ومنهك للغاية، أمسك بي بقوة، حتى رآنا أحد الحراس، فضرب يده بعقب البندقية، ولقد أصابتني ضربة خفيفة في نفس الوقت. لم أسمع أي شيء عن أبيك بعد ذلك، ولا حتى كلمة واحدة، ولا إشارة، حتى جاء شخص من بعيد، وأخبرنا أنه مات. كان ذلك منذ خمس سنين خلت. أبوك العزيز ميت، يا طفلتي العزيزة».

لا أتذكر الحزن. أتذكر صوت أمي الباكي، قيلت كل كلمة بمثل هذا الحنان: الطفلة العزيزة، بابا العزيز، أشجار التنوب العزيزة. أحببت زوج أمي الأنيق. لم أتذكر والدي، لا أستطع تذكره.

بعد ذلك، وفي ظهيرة أحد الأيام، عند أحد الأكشاك القريبة من المدرسة، الكشك الذي يبيع المياه الغازية عبر الآلة، والتي ممنوعة أنا من شرائها بشكل قاطع، مع أنها كانت أكثر ما أتوق إليه، ظهر رجل طويل مهيب، وقال أنه والدي. انفجرت باكية، وهرعت إلى المنزل بأسرع ما تسعفني به ساقاي. وجدت أمي شاحبة هناك. أبي ليس ميتاً، لقد عاد.

*

لا أتذكر أن أمي اصطحبتني إلى المدرسة في أي مناسبة، ولا أنها انتظرتني بعدها لاصطحابي إلى المنزل. كان زوج جدتي -الذي تبناها- هو من يفعل ذلك دائماً. اعتدنا السير على طول شارع غوركي، المسمى هكذا تكريماً للكاتب الروسي الأسطوري، منتعشين برائحة حشيشة الجنجل التي تفوح من شارع باربوس، المسمى على اسم كاتب فرنسي. حدثتني هذه المشاوير القصيرة عن الوطن والسلام.

لم أخف من العم سام، أو من الحرب النووية، خفت من أمي: بدا أن قوة شيطانية تتلبسها في بعض الأحيان، وترغمها على تدمير كل شيء حولها، خاصة حب أعز الناس على قلبها. كرهت أمها في تلك الأوقات، وكرهت زوج أمها أكثر، وكرهت حقيقة ميلادها. كانت تحبس نفسها في الحمام، وتنتحب، فيما أقف أنا عاجزة عند نهاية الممر. أرجَف نحيبها عظامي الصغيرة، فمعاناتها لا نهائية وغير مفهومة، تتذمر من ظلم القدر، ومن تعاسة الحياة غير القابلة للتفسير.

تخلل بصيص نور عرضي ظلمة تلك الأوقات الحالكة. جلسنا في غرفة الجلوس والنوافذ مفتوحة، حيث نفذت روائح الطهي اللذيذة، وتناهت إلينا أصوات الأطفال وهم يلعبون. رسمت أمي صورة ولادةٍ بأقلام رصاص ملونة على ورقة كبيرة. جلست في

حضنها، ولم أخف. رسمت أولاً طفلة مبتسمة في بطن أمها، ثم رأس الطفلة وهو يخرج من بين ساقي الأم، وعكست التكشيرة على وجه الطفلة المعاناة والرعب اللذين ينتظرانها في الخارج. ثم رسمت الأم والطفلة متصلتين بحبلهما السري فقط، والمقصات التي ستقص هذا الحبل. ثم الأم والرضيعة بين ذراعيها، تحدق إليها بعينين حنونتين خائفتين. تتبعت خطوط قلم رصاص أمي. يـدها بيضـاء وصـغيرة، وأظـافرها مكسـرة، راحـة يـدها جافـة ومشققة نتيجة الغسيل الدائم والبودرة التي يجب أن تترجرج داخل قفازاتها المطاطية. جلست في حضن أمي، ولم أكن خائفة. انحنيت، وضغطت خدي على يدها.

*

صممت والدتي على ألّا تندم على شيء، وتزوجت رجلاً تبناني، وأحبني مثل ابنته. لم نتحدث عن والدي الحقيقي مطلقاً. كما لم تعـرف أمـي مطلقـاً، عـن زيـاراتي لوالدي التي استمرت سنوات عديدة. كانت حالته الصحية سيئة للغاية عندما عاد من المنفى. عاش في شقة جماعية، كانت قد استُخدمت مخزناً فيما سبق: رطبة، وأرضيتها مغطاة بالصحف دائماً. وهو ثمل على الدوام.

يرغب، في غالبية حالات صحوه، بتذكر ماضيه وهو طالب في جامعة لاتفيا، وتذكر أبحاثه في المزارع الحراجية، ونفوره من الأخويـات. تـذكّر أمـه التي اعتادت الاهتمام بأناقته كونه شاباً نبيلاً، واعتادت مناداته: زانو. قال لي: «لديك دم أزرق يا بنتي»، ذلـك لأن والـده لـيس صـانع الأحـذية فـي مـدينة دوبـيلي الـذي تزوجتـه والـدته، بـل بـارون ألمـاني. والـدي واحـد مـن الجمـوع الغفيرة الصامتة، التي لم تستطع التكيف مع الواقع السوفييتي مطلقاً. لم يعش، ليرى موت بريجينيف وأندروبوف ولا مجيء غورباتشوف ولا طريق البلطيق إلى الحرية.

قررت أن أصبح طبيبة بعد أن عايشت معاناة والدي الجسدية. لسـت واثقـة مـن أننـي أحببتـه. شـعرت بالأسـف نحـوه أحيـاناً، وكرهته أحياناً؛ لأنني ظننت أن جينه المدمر للذات مغروس فيّ.

بقوة، وأنه سينمو، وسيقوى بمرور الوقت مهما حاربته.

أتذكر يوم موت والدي جيداً. فتحت مستأجرة أخرى الباب لي، المرأة اليهودية ذات القلب الدافئ، التي تدفع لي غالباً ثمن الفطائر المحلاة المزينة. قربتني نحو شالها الكروشيه الناعم، وهي تبكي. ثم قادتني إلى غرفة والدي.

كان مستقلياً هناك شاحباً وفاغراً فاه. كسر زملاء سكنه باب غرفته بعد يومين من وفاته.

الصحف المبعثرة تحته وعلى الأرض وعلى أريكته الملطخة عرضت الوجوه المبتسمة للعمال، والوجوه العابسة لأعضاء المكتب السياسي. رقد بين الكلمات التي وعدت بتحقيق خطة النمو الخمسية في سنة واحدة، وأشادت بالأخلاق الرفيعة لأولئك الذين يبنون الشيوعية. وهم أنفسهم من طالب ببناء مدن جديدة في سيبيريا البعيدة، حيث أرسل آلاف الأبرياء؛ ليموتوا دون معرفة طبيعة جرائمهم. لقد رقد بين الكلمات التي تدعو إلى تحويل مجاري الأنهار، وإلى تحويل الكنائس إلى مخازن للأسمدة المعدنية، وإلى تدمير تراثنا اللاتفي في الأدب والفن والنحت.

هكذا مات: واحد من كثيرين استسلموا بهدوء، مات في زاوية معتمة؛ لأنه لم يستطع التكيف وابتلاع الذل والعار والخزي والخيبة، مات مرمياً على مزبلة عصرنا. دفن، على الأرجح، في مقبرة جماعية للمشردين في ضواحي المدينة. لم تبد أمي أي اهتمام به، ولم تعلم بموته أبداً. حمت حياتها الجديدة، وبفعلها ذلك بذلت قصارى جهدها لحمايتي.

*

كانت جدتي وزوجها أقرب ما يكونان إلى أبٍ وأمٍ. بقيت والدتي في مكان ما خارج العائلة. تمحورت حيواتنا حولها. اتكلنا عليها، لكن ليس على أمومتها. طغى صراعها مع شياطينها وملائكتها على روتيننا اليومي بين الحين والآخر، مرغماً إيانا على الإقرار بالحد الواهي بين الحياة والموت. بقلق، كنا نبقى مستيقظين

بانتظار عودتها إلى المنزل. ونتنهد بارتياح في كل مرة تدخل فيها، مع أننا لا نعرف ما سيحمله النهار أو الليلة المقبلين. لم يعرف أحد منا الكثير عن والدي. اعتقدت جدتي أنهما التقيا في إحدى حفلات الرقص الشعبية في البلدة، التي أرغمتها هي على حضورها. فقد جاء حملها بعد ذلك. هذا كل ما عرفناه. لكنني تخيلت ذلك اللقاء.

تسمع أمي وهي تعد القهوة الفورية في مطبخ خالتها الصغير، تذكيراً في الراديو ذي الصوت المشوش الذي يعمل بالبطارية: أن هذا هو شهر كانون الثاني/ يناير 1969. صباح من تلك الصباحات الكانونية النضرة، التي تسارع فيه إلى الانتهاء من مذاكرة المعلومات البلهاء في ظل الشيوعية، وتكريس بقية وقتها للمسائل المتعلقة بالطب وأصول الحياة، ولقراءة نسخ مصورة ومهربة من كتب باسترناك وسارتر. ستكون طبيبة وعالمة مهما كلف الأمر. نجحت حالياً بفهم المنهج الرسمي بسهولة، وتكتسب بالتزامن مع ذلك تعليماً محظوراً ومختلفاً تماماً. أمها وخالتها قلقتان بشأنها، فهي تقضي أياماً بأكملها في غرفتها، تقرأ الكتب فقط. إنها تدنو من الخامسة والعشرين من عمرها، ولم تخرج مع شاب أبداً. هل هي جذابة؟ عظامها دقيقة، يداها صغيرتان، ثدياها مستديران قويان، شعرها فاتح، تقصه بشكل قصير من حين لآخر، وتشقّره، وثمة نمش في بشرتها. لا تعتني بلباسها مطلقاً. حتى أنها تذهب إلى الجامعة ببناطيل فضفاضة ومريحة، مع أنها كانت تشعر بالنظرات المستهجنة لأساتذتها وزملائها؛ إذ لم يكن ارتداء البناطيل مقبولاً للنساء إلا في أيام السبت أو عند العمل في الكولخوز(*). أما في بقية بالأوقات فينبغي عليهن ارتداء تنورة تصل حتى الركبة، أو ملابس قصيرة محتشمة بالطبع، عندما يلبسن على الموضة.

تحتسي أمي القهوة المرة، وتحدق من النافذة، وتفكر بالحوت الضخم، هوس القبطان، في رواية موبي ديك، فيما خالتها تقلي البطاطا من أجل فطور زوجها.

تجبرها أمها وخالتها في المساء على ارتداء فستان أرسله

187 دقيقة متبقية من ... 6%

أخوهما من إنجلترا. يجب عليها الذهاب إلى حفلة رقص القرية، والتوقف عن دفن نفسها بين هذه الكتب. سوف تعزف الفرقة المحلية، وسيكون هناك مشروبات ورقص حتماً. ولعل دودة كتب المدينة سترقص بجنون مع فتيان القرية. توصلها الشقيقتان إلى باب القاعة مباشرة.

ما تراه في الداخل، لا يقارن بأي شيء خبرته سابقاً. يلوح مغن بيديه متصنعاً على الخشبة. تتحرك عدة ثنائيات حول حلبة الرقص، يرقص بعضها رقصاً حراً، ويرقص آخرون رقصة الفالس. تتجمع فتيات ريفيات بدينات متماثلات مثل خلية النحل حول طاولات البوفيه في طرف الغرفة. ويتململ الشبان على الطرف الآخر.

مالذي تفعله هنا؟ لا تفهم: إنه نوع من الوجود والعدم عند سارتر. لكن الفستان الإنجليزي جذب الأنظار. وكذلك قصة شعرها الأشقر الناعم الصبيانية.

تأمل بأن لا تكون أمها وخالتها واقفتان عند الباب مثل سيربيروس الأسطوري، جاهزتان لإعادتها إلى دوائر الجحيم السبع. وحتى تتأكد من ذلك، ستمكث بعض الوقت، ثم تغادر؛ لتجلس بجوار البحيرة. ومن ثم تعود إلى المنزل، كما لو أنها رقصت حتى الثمالة، أما الشاب الذي يفترض أن يرافقها فسيكون خجولاً جداً، حتى لا يدخل.

تستقر في إحدى الزوايا، وتحدق إلى الثنائيات الراقصة الثملة تقريباً. بعد ذلك، يمشي شاب باتجاهها عبر حلبة الرقص، تتمنى لو يغير وجهته، لكن سرعان ما يتضح الأمر، إنه قادم إليها مباشرة.

يطلب منها بتهذيب: أن ترقص معه. لا تذكر حتى إن كان بإمكانها الرفض. تعطيه يدها ببساطة، وينضمان إلى جوقة الراقصين. يرقص بثقة. يلامس خده خدها من حين لآخر، تحسّ أن ذلك ليس أمراً مزعجاً. يفعلان ما تفعله الثنائيات الأخرى بين الرقصات: يتباعدان، ولا يعرفان ماذا يفعلان بأيديهما بانتظار بدء

الأغنيـة التاليـة. يقتـرح عليـها بعـد الرقصة العاشرة أن يحتسيا بعض النبيذ. ثمة ازدحام عند الطاولات، لكنه يتمكن من التسلل بسهولة عبر الزحام، ثم يظهر مع كأسين ممتلئين. ويجلسان في طرف الغرفة.

هي سوف تصبح طبيبة، عالمة.

هو يعمل في ورشة ميكانيك حالياً. كيف حدث أن تكون هنا؟

هي تقيم مع خالتها في المزرعة.

كيف يبدو لها الريف؟

جميل. تستطيع أن تعيش في الريف إذا كانت كتبها معها.

كيف تخطط لكسب المال؟

سوف تصبح عالمة.

آه. هو يريد أن يدرس ليصبح مهندس طيران.

هل ترغب هي بالمزيد من الرقص؟

لا.

هل بإمكانه اصطحابها إلى المنزل؟

نعم.

الليلة الكانونية دافئة على غير العادة. يمشيان بمحاذاة البحيرة التي لم تتجمد بعد. يجمع بعض الحجارة المسطحة، ويوضح لها كيف سيجعلها تثب فوق الماء. مثلما تثب أفكارها إلى السطح عندما تحاول فهم فويرباخ. تمس الحجارة سطح الماء ثم تطير ثانية. ولكن، كي تحصل على شهادة الدبلوم عليها تفسير إلحاد فويرباخ. الحجر يغوص.

يدعوها لشرب بعض الشاي معه في كوخ حارس قريب، يقضيان الليلة معاً.

*

بدأ كرهي لأمي ولحالتنا العامة يشتد شيئاً فشيئاً بعد وفاة والدي. متأثرة بماضيها حثتني على تعلم كل شيء أراده معلمي، وعلى ألّا أعاند، وعلى أن أكون عضوةً نشطةً في منظمات الشباب الشيوعية. أمي محتمية بزوجها، الذي كان جندياً في الجيش المنتصر في الحرب الوطنية العظمى، وقد غطت هذه الذكرى اللامعة على خدمته السابقة في الحرس الرئاسي اللاتفي وعلى تطوع أخيه في الجيش الألماني: رقصة البولكا الدموية للتاريخ.

تتناقش أمي وزوجها في أمر شقيقيهما في وقت متأخر من الليل: قد أعدم شقيق زوج أمي لكونه خائناً، وتعرض قبل ذلك للتعذيب بتهمة خيانة سابقة غير محددة. يتمتم زوج أمي: «تلك الكلاب الروسية»، أنا لم أفهم، لقد زحف جنباً إلى جنب مع تلك الكلاب حتى برلين تقريباً، واحتفل معهم في مناسبات شهري أيار/مايو وتشرين الأول/أكتوبر، وتلقى سلة غذائية مع بعض المواد النادرة، مثل: النقانق المقددة، والقهوة الفورية، والمخللات، والطماطم.

أما شقيق والدتي فهو على قيد الحياة ووضعه على أفضل ما يرام في لندن. امتلك مصنعاً للملابس هناك، وأرسل لها طروداً بأشياء لم نعتد على رؤيتها هنا: أقمشة جميلة، وشِلّات غزل مع تصاميمها، والتي حاكت أمي ملابسنا منها. كانت أمي تتقدم بطلب إلى الأجهزة الأمنية السوفييتية مرتين في كل عام للحصول على تصريح لزيارته. وتتلقى رداً رسمياً مرتين في السنة: أن الأمر غير ضروري. انتهت مراسلاتها مع النظام، التي دامت عشر سنوات بغير ضروري مرة أخرى. وهو الرد على طلبها الأخير، للحصول على إذن، للذهاب إلى لندن من أجل حضور جنازة شقيقها.

واصلت أمي، رغماً عن كل هذا العبث، تربيتي على أن أكون مواطنة سوفييتية شابة محترمة ومخلصة. لكن كراهية ازدواجية هذا الوجود ونفاقه، تطورت في داخلي. حملنا الأعلام

فـي مسـيرات شـهر أيـار/ مـايو وتشـرين الثاني/ نوفمبر تكريماً للجـيش الأحمـر وللثـورة وللشـيوعـية، بينمـا صـلينا فـي المـنزل، وانتظرنـا الجـيش الانجـليزي؛ ليـأتي ويحـرر لاتفيـا مـن الحـذاء العسكري الروسي.

بعـد أن أديـت بكـل شرف دوري كمنافقة في المدرسة أصبحت مولعة بالكتب وانطوائية. وعندما توفي بروفيسور، كان يقطن في الطابق الذي فوقنا، تخلص المستأجرون الجدد من مكتبته عبر النافذة. تجمعت كومة هائلة من الكتب في الحديقة. لم تُخفِ أمـي اسـتياءها عنـدما حملتُ الموسـوعة الطبيـة القـديمة ذات المجلـدات العـديدة علـى الـدرج، لكنها لم تعتـرض خشـية زيـادة الشرخ بيننا.

وهنا كانت الحقيقة برمتها، حقيقة المخلوق التعس المنافق الذي نـدعوه الإنسـان: فوضـى الأوعيـة الـدموية، والتفـافات الأمعـاء، والغــدد، والإفــرازات، والغـدد اللمفاويـة، والشـرايين، والأعضـاء الـذكرية، والمهابل، والخصـى، والأرحـام. كـان المـوت -ضـمن هذا المفهوم- مجرد نقطة توقف عرضية، لا مفر منها.

*

عندما أفكر في والدتي، وفي ولادتها وولادتي أنا، لا يسعني إلا أن أفكر في القضاء والقدر، أو ربما في نوع ما من خطة كبيرة عصية على الفهم. لا أتخيل أمي طالبة طب في لاتفيا السوفييتية، ولا أتخيلها تحمل طفلة غير مرغوب بها في خريف ريغا الرمادي. بل أتخيلها في عالم مواز، تسوده الحرية، وتغني فيه بمنديل معقود علـى جبينـها، وبطنها منفوخ ونصف عار مع فرقة «ذا هو» في مهرجان وودستوك.

علـى الـرغم مـن الاسـتحالة التاريخيـة، فـهناك بعـض مـن الـروح الطفوليـة الحـرة داخـل أمـي. لـم تكـن تخشـى خـوض التجـارب بنفسـها، ولا قضـاء بعـض الأوقـات فـي حالـة انتشـاء، سـواء مـن خــلال اسـتخدام بعـض المـواد أم بفضـل رفضـها تقبـل المكـان والزمان اللذين قدرلها أن تعيش فيهما. أتذكرها ذات مرة في

حالة سكر وانتشاء في أحد حقول الهندباء القريبة من ميدان سباق الخيل، حيث لم تعد تتسابق الخيول. كان الميدان بالنسبة إليها دليلاً على نوع ما من حياة أخرى سعيدة ومن دون قيود. ركضت عبر حقل الهندباء مثل مهرة، وقفزت أنا؛ لأكون قريبة منها. تمددت متقطعة الأنفاس بين الهندباء، وارتميت أنا بجانبها. استلقينا هناك، ولم يكن للعالم حدود.

*

حققت حلمي: قبلني معهد ريغا الطبي. يتشبث المسؤولون هناك بعرف يعود إلى زمن ما قبل الحرب، بموجبه كان جميع الأطباء من عائلات يهودية. ووجد القادمون الجدد صعوبة في كسره. لكن كان من الصعب كبحي.

انتصبت على طاولة المطبخ جمجمة راحلٍ مجهول، نبشها زوج أمي من مقبرة بلدة بعيدة، ونقعها بسوائل عديدة حتى اكتسبت بريقاً أبيض مزرقاً. سردت صلاتي الربانية للعظام أمام الجمجمة صباحاً ومساءً باللغتين اللاتفية واللاتينية: العظم الوتدي، والعظم القذالي، والعظم الصدغي، والعظم الجداري، والعظم الجبهي، والعظم الغربالي، وعظام الفك العلوي، والعظم الوجني، وعظم الحنك، والعظم الدمعي، والعظم الأنفي، والعظم اللامي...

كان أفضل صديق لي في مختبر التشريح، هو:**جثة المارتيني**، كما كان يطلق عليه. من أجل قدر من الفودكا؛ يدعك تدخل الغرف المغلقة ليلاً. يصطاد لي العضو المطلوب من الجسد من حوض الفورمالين. وأقضي ساعات في تشريحه وتركيبه وخياطته. فمن أجل حل لغز الحياة، عليك استخدام لغز الموت بكونه مرشداً.

لاحظ أستاذ كبير في السن مثابرتي. قال لي: إن لدي دافعاً استثنائياً لفك أسرار الجسد بالنسبة إلى فتاة شابة، وإنّ لدي عقلاً متقداً، لن يفيدني بشيء في النهاية. وقال: يجب علي أن أتعلم تقبل أن مفتاح الحياة والموت ليس بيدي. وأكد على أنه يوجد شيء ما أعظم من الوجود، شيء ما ربما لا نذكره. لم يكن لدى الرجل المسن ما يخسره. وجدني في إحدى الأماسي منكبة على

رحم في حوض الفورمالين، فسألني: «هل تؤمنين بالله؟». كان من الصعب الإجابة على هذا السؤال، نظراً لمحو جميع ما يشير إلى الأشياء الإلهية من المواد المطبوعة في ظل النظام السوفييتي.

قلت: «لم تتسنّ لي فرصة لقائه بعد».

*

كنت في السابعة أو الثامنة من عمري عندما أصبحت بكماء تقريباً لفترة قصيرة. كان أصيلاً خريفياً جميلاً، وكنا أنا وصديقتي نجمع الأوراق التي بدأت تصفر حول ميدان سباق الخيل. انتشرت رائحة حريق من خلال الأشجار. ولم يبد الأمر مريباً؛ لأن الناس كثيراً ما يحرقون أشياء في حدائقهم خلال الخريف.

لكن الرائحة كانت تقوى. وفجأة، اخترقت ألسنة لهب هائلة سقف ميدان السباق. وانتقلت على طول المبنى الجميل بسرعة لا تصدق، وسرعان ما سُمعت صرخات بشرية وصفارات سيارات الإطفاء والإسعاف. جمدنا في مكاننا، نحدق في هذا المشهد الكارثي، وجيوبنا مليئة بالأوراق. اندفعت أمي من إحدى سيارات الإسعاف، وهرعت باتجاه رجال الإطفاء وهي تصرخ، والتقطت دلواً وغرفت الماء من حفرة مستنقعية، وركضت باتجاه المبنى المشتعل. ركضت لأكون معها، وأنا أبكي بخوف رهيب. أدركنا رجال الإطفاء بين المدرجات في الساحة الرئيسية، مع الوقت نفسه الذي انهار فيه تماماً السقف المشتعل.

حقنوا أمي بشيء ما في سيارة الإسعاف لتهدئتها. جاهدت متأتئة لقول كلمة واحدة فقط. أتذكر جيداً تلك الرحلة القصيرة من ميدان سباق الخيل المشتعل إلى مبنانا. أمسكت أمي من يدها، استسلمت لي، وهي تحدق مشدوهة. واصلت البكاء وتأتأة تلك الكلمة الوحيدة: «البيت».

كانت «ليلة ولبورجيس» حقيقية. سرعان ما تلاشى تأثير الحقنة المهدئة، وقضت أمي الليلة وهي تحطم غرفتها. حبستني جدتي في الحمام، بينما حاول زوج جدتي الدخول إلى غرفة أمي.

صرخت أمي: «جزارون، جزارون، جزارون، جزارون!». وقفت جدتي تنتحب عند الباب الزجاجي، وتتوسل إليها أن تهدأ. ثم بدأت أمي نوبة بكاء طويلة. وسرعان ما بدأ جيراننا القلقون القرع على الباب، ثم صمتوا جميعاً. الصمت الذي اتحد مع عتمة الحمام، حيث جلست أبكي، وأحاول نطق كلمة «البيت» بهدوء.

*

كان يوماً صيفياً جميلاً في عام 1977. دعاني رئيس الأطباء في الصباح التالي للمناوبة الليلية، قال لي: إن ثمة فرصة متاحة لإكمال دراستي في مجال أمراض النساء والغدد الصم في لينينغراد. بدا الذهاب إلى لينينغراد والتركيز على العلم أمراً لا يصدق بعد المسلخ -كما كنا نطلق على المناوبة الليلية بمصطلحاتنا الخاصة- مع عجلة الولادات التي لا تتوقف، والعمليات القيصرية، وحالات الإجهاض القانونية والعفوية المحددة، والأورام الرحمية، والزوائد اللحمية، والأورام الحميدة. كان عليّ الذهاب إلى شارع إنجلز لتقديم الطلب وإجراء مقابلة قصيرة. إنه مجرد إجراء شكلي.

أغوتني ردهة انتظار الجحيم هذه في شارع إنجلز. ربما سيتاح لي دخول الجنة، وربما سأدفع الثمن دماً. حصّنت نفسي بالقهوة وبحقنة كافيين. تخطيت مبنانا، حيث كان زوج أمي يحضّر الفطور، وأمي تضفر شعر ابنتي من أجل المدرسة. تخطيت حياتهم التي لم أنسجم معها، بل سكنتها مثل شبح من عالم آخر، وكنت أنجذب إلى غموضه أكثر فأكثر.

قال لي رئيس الأطباء: إن ذلك إجراء شكلي. مضيت إلى المبنى الذي في أقبيته، قبل أربع سنوات من ولادتي، ذبح النظام السوفييتي المشكّل حديثاً في لاتفيا، الناس الأبرياء كمجرد إجراء شكلي، وسالت دماؤهم عبر مزاريب بنيت خصيصاً؛ لتختلط بمياه الصرف الصحي في ريغا. احتشد السجناء ينتظرون الموت أو الترحيل إلى سيبيريا في غرف صغيرة من دون تهوية مع مصابيح سقفية مجردة. هكذا كانت تلك الأوقات،

الجرائم ضد النظام حدث يومي. ويجب عليّ اجتياز شكلية دائرة الجحيم هذه؛ فلينينغراد بانتظاري مع اكتشافاتها العلمية الجديدة وروحها الحرة الممنوعة على ريغا المقموعة.

داخل مبنى شارع إنجلز، قادني رجل متأنق بلباس مدني إلى مكتبه.

-أنت طبيبة شابة موهوبة للغاية، لكن لديك خلفية معقدة. أجيبي عن أسئلتي بوضوح وإيجاز: هل قابلت والدك؟

- لا.

- هل تعلمين أنه خائن لبلده؟

- لا.

- هل ستتصلين به لو علمت؟

- لا.

- هل حدثتك والدتك مرة عن أخيها؟

- لا.

- هل علمت أنه شارك في نشر دعاية مناهضة للسوفييت في لندن؟

- لا.

- هل رغبت يوماً في لقائه؟

- لا.

- ما الذي قصدته بالضبط بهذه الكلمات التي قيلت في تاريخ ـــ الساعة ـــ في مختبر التشريح: «لم تتسنّ لي فرصة لقائه بعد؟» من هذا الـ هو؟

- اللّٰه.

- هل تؤمنين بالله؟

- لا.

- شكراً لك. سوف نخطر رئيس الأطباء بقرارنا المتعلق بإكمال دراستك في لينينغراد.

اتصل بي رئيس الأطباء مساءً؛ ليهنئني على منحي الفرصة لإكمال تعليمي في لينينغراد. بعد ساعة من ذلك، كان علينا الاندفاع نحو ميدان سباق الخيل الذي تلتهمه نيران اللهب الأزرق. تمكنت من زج جميع أنواع الحقن في حقيبتي. كنت مضطربة وعازمة على إنقاذ حياة الناس. عرفت أنهم حقنوني بمهدئ. ولا أتذكر أكثر من ذلك.

*

أصبحت أمي بلا عمل فجأة، عندما عادت من لينينغراد. انعزلت، ولم تخرج إلا لتحضير الشاي أو القهوة. استمرت حياتنا في عالمين متوازيين. بدأ الصباح باكراً في بيتنا. أعد جدي الفطور، وكوت جدتي ملابسي المدرسية، وضفرت لي شعري. ورتبت أنا كتبي ودفاتري ومقلمتي وأقلام الرصاص وقلم الحبر والممحاة. ثم اصطحبني زوج جدتي إلى المدرسة ممسكاً بيدي طوال الطريق.

درست بجد، لكني كنت أعد الساعات حتى ينتهي الدوام المدرسي دائماً، حيث يكون زوج جدتي بانتظاري في الخارج. كان أكبر سناً من بقية الآباء بشكل ملحوظ، لكنه بدا بقامته الطويلة أنيقاً ووقوراً على الدوام. كثيراً ما توقفنا في طريق العودة من المدرسة إلى المنزل في طوابير الانتظار في محلات اللحوم والألبان، على أمل الحصول على شيء ما هناك، «يرمى» كما لو أنه للحيوانات، كما اعتدنا أن نقول في تلك السنوات العجاف. ونتوقف بعد ذلك مرة أخرى للانتظار في طابور الكشك للحصول على الصحيفة المسائية. عندئذ فقط، نمضي إلى المنزل لتناول النقانق مع البطاطا ومخلل الملفوف.

شغّل التلفاز في الأمسيات، وأطلعنا باللغتين الروسية واللاتفية على شؤون البلد المزدهر الذي نعيش فيه. علقت جدتي على كل كلمة من الخطابات الطويلة لقائدنا العظيم ليونيد إيليتش بريجنيف. كانت مقتنعة بأن لدى بريجينيف طقم أسنان اصطناعي غير ملائم. وزعمت أنها تخشى من احتمال سقوطه من فمه.

في تلك الأمسيات كنت أذهب لأتفقد أمي في غرفتها. كانت مليئة بالكتب، وبأكوام الورق، وبالأكواب القذرة، وبالمنافض الطافحة بأعقاب السجائر. تكون أمي جالسة على سريرها ضجرة ولا مبالية، تتصفح بعض أوراق الملاحظات. وبالكاد تنتبه إلى زائرتها من الباب المجاور. أجلس قليلاً، أتمعن فيها وفي غرفتها، ثم أغادر بهدوء.

أتذكر عصر ذلك اليوم، عندما وجدت أمي في انتظاري بدلاً من جدي. قبّلتني، وحملت حقيبتي المدرسية، وأخبرتني بأننا ذاهبتان إلى السوق. نحن نادراً ما كنا نشتري من السوق؛ لأن كل شيء غالي الثمن هناك. عرض رجال سود حقائب كبيرة مليئة بالعجائب: البطيخ الأصفر الفواح، والأفوكادو، وعناقيد العنب الأبيض، وفاكهة برتقالية اللون أطلقوا عليها اسم الكاكا. سمحت لي أمي باختيار كل ما أرغب فيه. انتقيت ثمرتي أفوكادو، وثمرة كاكا، وحفنة من بعض المكسرات. قالت أمي إنها كستناء صالحة للأكل، واعتقدت أن هذا غير معقول.

اختلف يوم السوق هذا عن أيامنا المعتادة كلياً. بعد شراء فواكهنا الغريبة، أجلستني أمي إلى طاولة في مقهى السوق. طلبت شوكولاتة ساخنة لشخصين، وسألتني إن كنت أرغب في الذهاب معها إلى البلدة. حيث عرض عليها عمل في مركز رعاية صحية صغير. سيكون الأمر جيداً لكلتينا: أن يكون لنا منزلنا الخاص، وحديقة، وربما قطة أو كلب. جلست وأنا أحمل كيس الفواكه، وحاولت تخيل تلك الحياة الجديدة الجميلة بنشوة طفولية. ولكن ماذا بشأن جديّ؟

قالت والدتي: «ستزورينهما متى شئت».

بدت هذه الفرصة مستحيلة، كلما اقتربنا من منزلنا في طريق العودة. رأيتهما معاً في المطبخ مصدومين بشكل ملحوظ. من الواضح أن أمي تحدثت معهما سابقاً. تركتنا ثلاثتنا لوحدنا. عانقنا بعضنا بعضاً، وبكينا. ولم ينفع ذلك بشيء.

*

أقمت في أثناء استكمال دراستي في لينينغراد في شقة لاريسا نيكولاييفنا القديمة في شارع نيفا بروسبكت. حولت العجوز عالمي الخيالي إلى واقع. رفضت أن تطلق تسمية لينينغراد على سانت بطرسبرغ، وهي لا تذكر -حسبما قالت- زمن الترف السابق فقط، بل تذكر زمن حصار المدينة أيضاً، عندما اضطر الناس إلى أكل الصحف والصمغ. وهي ليست مهتمة بالطب، بل بالأمسيات التي تستطيع التحدث فيها لساعات عن يسينين. لم تعتبره شاعراً عظيماً، لكن أثارت اهتمامها الشائعات حول اختفائه أو موته. كانت تقول: «هكذا اختفى الكثيرون منا».

لم أكن مهتمة بنظريات المؤامرة. ذهبت في الصباحات إلى المعهد، التقيت هناك زميلاتي الروسيات اللواتي عشن على القهوة والسجائر وأمبولات الكافيين والشمندر الأحمر المغلي. لبسن الكنزات الصوفية السميكة والسراويل العريضة، وقصصن شعرهن قصات صبيانية، وكن مهووسات بفك ألغاز الخصوبة والعقم. تحادثن بلغة روسية بارعة، تخللتها كلمات بذيئة غليظة بين الحين والآخر. شربن المشروبات الروحية الخفيفة في المساء، لكن بحلول الصباح كن نشيطات ومتيقظات ومنحنيات على مجاهرهن.

أنهكتنا دراسة عينات الخلايا اللامتناهية؛ فدللنا أرواحنا في الأمسيات، وتأملنا في شعر برودسكي، من شبه الحياة ببندول الساعة: ما إن يتأرجح إلى اليسار حتى يتعين عليه معاودة التأرجح مرة أخرى. نُفي من روسيا منذ ست سنوات. هو يتجول الآن في مكان ما في شوارع نيويورك. ونحن نجرجر أقدامنا على

السطح الجليدي الهش للفكر الحر في لينينغراد.

سيرافيما، جارة لاريسا نيكولاييفنا، امرأة روسية لطيفة تعرضت لتعنيف من زوجها. كان مصاب حرب، يشرب ويضربها. كلما ضرب زوجته أكثر، أحبته أكثر. لم تفقد الأمل أبداً في أن تصبح أماً. تتسلل بهدوء كل صباح ومساء إلى غرفة المؤونة حيث تخفي أيقوناتها وشموعها الصغيرة. وهناك تصلي سيرافيما إلى أم الرب؛ لترزق بطفل. زارتنا كثيراً، وكانت تحضر معها دائماً شيئاً لذيذاً: فطائر محشية بالزبدة، أو زلابية، أو فطائر اللحم، أو حساء البورش. نأكل في مطبخ لاريسا نيكولاييفنا، وتغني سيرافيما أغنية حزينة عن طفل لن يأتي إلى أمه: «كيف يمكن لحالي أن يكون من دونك يا طفلي؟».

لم أشعر بتوق سيرافيما نفسه: لقد حملتُ، وأنجبت طفلة، لكن ليس لدي غرائز أمومية. أبعدني شيء ما عن هذا السر، وأرغب في التحري عن جوهره، واكتشاف طبيعته الحقيقية. اختفيت عدة أيام حتى لا أضطر لإرضاع طفلتي، كان حليبي مراً: حليب عدم الفهم، أو حليب الهلاك، فحميت طفلتي منه.

خطر لي -وسيرافيما تغني- أن أجري تجربة: كيف نتحايل على الطبيعة الأم، ونتجاهل الله الذي أنكرت وجوده في غرفة انتظار الجحيم. كانت زميلاتي في المعهد مستعدات للمشاركة، وكان عليّ إقناع سيرافيما.

شرحت لسيرافيما في وقت متأخر من إحدى الأمسيات في مطبخ لاريسا نيكولاييفنا، ما الذي كان يجب أن يحدث في جسدها لتكوين طفل، ولم يحدث. رسمت مبيض سيرافيما والبويضة الحرة التي اندفع إليها جيش كامل من الحيوانات المنوية لزوجها الثمل الظالم، التي تبين أنها ضعيفة جداً إلى درجة لم تتمكن فيها من احتلال قلعة سيرافيما. نظرت إليّ بعينين مدورتين مذعورتين، صلّبت نفسها عدة مرات، ورددت: «أعوذ بالله! أعوذ بالله!». بعد ذلك استجمعت شجاعتي، وقلت: «سوف أساعد زوجك اللعين في هذه المعركة؛ لأنك تريدين ذلك

من صميم قلبك الطيب المؤمن». جمدت سيرافيما. تابعت: «لا، لا يـا عزيزتـي سـيرافيما، سـتكونان لوحـدكما، سـوف أقـدم لكما المساعدة الطبية فقط».

فكرت سيرافيما ثلاثة أيام بلياليها، ثم اتخذت قرارها. جاءت إلى المعهد لمقابلتنا في اليوم التالي لخصوبتها. حملت السائل المنوي لزوجها السكير تحت ذراعها للحفاظ عليه دافئاً. سخناه نحن أكثر على مشعاتنا، ثم حقناه في رحم سيرافيما. بقيت في المعهد نصف يوم مرفوعة الساقين. ثم ذهبت إلى المنزل. بعد بعض الـوقت، أكـدت لـها أنـها حـامل. انـدفعت إلـى مطبـخ لاريسـا نيكولاييفنا واحتضنت ساقي: «أنت قديسة، قديسة، قديسة حقيقية».

*

تمكّنا من رؤية ظلال المدينة القديمة، ثم مرت سريعاً المناطق السكنية الجديدة، حيث سكن الناس في شقق متماثلة مع مماسح أحذية متماثلة أمام أبوابها. تقاطر الحشد الباهت منهم إلى أماكن عمله في الصباح. وعاد مرة أخرى في المساء لمشاهدة نفس البرامج التلفازية المبهمة عن وطنهم الأم. نسينا كل ذلك عندما مر القطار عبر الغابات والحقول، وتضاءل عدد المنازل والناس في المحطات. نزلنا أخيراً في محطة ريفية صغيرة. اختفى القطار وهـو يصـفر فـي المـدى. أشـعلت أمـي سـيجارة، وبـدأت حيـاتنا الجديدة.

مشينا أنا وأمي على قضبان السكة الحديدية بعض الوقت. قالت أمـي: «انتبهي إلى العوارض، واحذري أن تعلق قدمك». عددت عوارض السكة الحديدية، وأنا أخطو بقدميّ الصغيرتين فوق كل واحدة منها. أصبحت هذه القضبان في السنوات القليلة التالية مكان التأمل الخاص بي. قربتني من جديّ اللذين يعيشان الآن بانتظار زياراتي. في كثير من الأحيان كانت حبات الذرة الصفراء تتطاير من قطارات نقل البضائع المتسارعة على الجسر، فهدّأت أشواقي، وقصّرت أيام الفراق وأسابيعه الطويلة، وأنا ألتقطها من

بين الحصى.

بدا أنني وأمي نبدأ حالياً حياة جديدة برفقة الربيع. رحبت بنا شقائق النعمان البيضاء والزرقاء من الخنادق. كانت السماء صافية، وزقزق وقواق في المدى. وأشجار البتولا لا تزال تحتفظ بذلك الخضار الخالص البهي المبهر للعين. اختلط هواء الربيع مع دخان سيجارة أمي، وبشّر بشيء ما جديد، بدّد حزن الفراق.

كل شيء مختلف في منزلنا الصغير الواقع في طرف القرية: وجب جلب الماء من البئر، والحطب استهلكه موقد الطبخ والمدفأة اللذين يدفئان المنزل، وانبعثت رائحة كريهة من المرحاض الخالي من المياه. لكن المدرسة والمركز الصحي، مكان عمل أمي، على بعد أقل من عشر دقائق سيراً على الأقدام. لدينا حديقة معشوشبة، فيها: أزهار التوليب الصفراء، وشجرتي برقوق، وشجرة كرز ناضجة، ومجموعة من الشجيرات المزهرة جميعها.

كان يومي الأول في المدرسة مريعاً: قادتني أمي إلى مبنى من الطوب القديم، وألقت بي في عرين الأسد. ملأ الشك أطفال البلدة؛ فحدقوا فيّ كما لو أنني جئت من كوكب آخر. وتمثل رضاهم الوحيد في ابتكار طرق لإذلالي. وبدت المعلمة لا مبالية؛ لأنها بدورها نظرت إلى أمي بكثير من الشك.

مر الشهر الأول من حياتي الجديدة في ضباب الدموع. أمشي كل يوم بعد المدرسة إلى سكة الحديد، أجلس على حافة الجسر، وأحدق في المدى. وهناك، أفلت عنان مخيلتي؛ لتعيدني إلى المدينة وإلى جديّ.

كانت أمي تغادر إلى العمل في الصباح الباكر، وتعود في وقت متأخر من الليل. وجب عليّ الاعتناء بنفسي: تعلمت إيقاد النار في موقد الحطب، وجلب الماء من البئر، والغسيل، وصنع الحساء. عشت في غرفة واحدة مع كلب تبنّى منزلنا. كان صديقاً جيداً ومخلصاً، لكنه نقل براغيثه إليّ.

*

تغيرت سيرافيما أمام أعيننا في لينينغراد. جاءت إلى المعهد كل يومين مع المعجنات المخبوزة. أقسمت أن السلام والوعي هبطا على زوجها. فقد أقلع عن الشرب تقريباً، وأصبح مهذباً، ويحاول الاعتناء بها؛ فهي تحمل طفله في النهاية. كنا نحن الطبيبات رفقة بالفعل: نساء مثقفات فضوليات، ومهتمات فقط بمزارع الخلايا، وبالمعاينات المجهرية، وبالنظريات المعقدة، وبالقهوة، وبالسجائر، وبالمزيد من القهوة والكحول. لقد دمرنا زيجاتنا، وفشلنا بأن نكون أمهات لأطفالنا. ثم جاءت سيرافيما: أيقونة من الحليب والدم، والزوجة المخلصة، ومريم العذراء المنورة، والتجربة الحية لإثبات نظرياتنا كلها.

تعلقت بي سيرافيما كما يتعلق المرء بمعلم أو بقديس. لم أتحمل النظرات التي ترمقني بها، مزيج من سذاجة طفولية وإعجاب أشبه ما يكون بإخلاص كلب. تحاول في كثير من الأحيان، عندما لا يكون أحد منتبهاً، أن تلاطفني، أو أن ترسم إشارة الصليب فوقي. حاولت إخفاء انزعاجي؛ كيلا أجرحها.

أخبرت سيرافيما، ونحن نحتسي الشاي، بعد ظهر أحد الأيام في المعهد: أن لدي ابنة، وأنني لست أماً جيدة، بل لم أشعر بشعور الأم على الإطلاق. حدقت إليّ سيرافيما بعينين خائفتين، وأخبرتني ألا أقول المزيد. تابعت حديثي. أردت قطع حبل إعجاب سيرافيما السري. وأخبرتها: أنني لا أؤمن بالله، وأنني لم أرغب في إرضاع حليبي لطفلتي؛ حتى لا ترضع حقارتي معه.

صرخت سيرافيما: «حقارة؟!».

أجل، يا سيرافيما، حقارة الشيطان، كما يطلق عليه في لغتكم.

صرخت سيرافيما: «لكن لا يوجد شيطان في داخلك، أنت قديسة»، خرجت من أعماق قلبها بشكل طبيعي جداً إلى درجة صدمتني.

أمسكت يدي، ووضعتها على بطنها المنتفخ، وقالت: «أنت

منحتني هذا»، ونظرت إلي بعينين صافيتين مشرقتين، وللحظة شعرت بها. ملأت فرحة الأم هذا الممر الفارغ الموحش بضوء رقيق، وأضفت معنى على حقبة بلا معنى.

بقيت في ذلك المساء حتى وقت متأخر في المعهد. أثار فيّ حديثي مع سيرافيما شوقاً لابنتي، وهو شعور لم ينتبني منذ فترة طويلة. أردت تمشيط شعرها الطويل الفوضوي وضفره. تخيلتهم ثلاثتهم في البيت: ابنتي، وأمي، وزوج أمي، يتناولون العشاء. لا بد أن زوج أمي يقرأ رواية تاريخية عن معركة ستالينجراد، وأمي تخيط أو تصلح شيئاً ما، وابنتي تدرس الرياضيات أو تكتب وظائفها باهتمام. وفي التلفاز انتهى البرنامج الإخباري، وغنت نورا بومبيير وفيكتور لابشينوكس «في ساعة الفانوس».

غادرت المعهد في موعد الفانوس، عند تشغيل المصابيح الغازية تماماً، وهرعت للوصول إلى نهر نيفا قبل أن يرفعوا الجسور.

اعتادت لاريسا نيكولاييفنا وصولي المتأخر إلى المنزل. انتظرتني في المطبخ في تلك الليلة. كانت شاحبة، وعلى الطاولة أمامها كوب من الماء وزجاجة دواء صغيرة. لقد جاءت سيرافيما إلى المنزل وعلى وجهها كدمات شديدة. جن جنون زوجها لأمر تافه، كان ثملاً على الأرجح، تراشقا الكلام وضربها. ساعدت لاريسا نيكولاييفنا سيرافيما بغسل وجهها ووضع الكمادات عليه، وحضّرت لها شاياً مُهدئاً. ثم عادت سيرافيما إلى منزلها. ولم تتمكن لاريسا نيكولاييفنا من النوم بعد.

سيطر عليّ شيء ما. أخذت مدقة اللحم، ودون أن أخلع معطفي، ذهبت إلى بيت الدرج، ثم إلى شقة سيرافيما. وجدت الباب نصف مفتوح، وزوج سيرافيما جالساً في المطبخ يشرب، بينما استغرقت هي في نوم أليم في المكان شبه المظلم من الغرفة الخلفية. قال: «أوه، جارتنا، تفضلي بالجلوس». شربنا جرعة معاً. وقلت له: «دعنا نخرج». خرجنا إلى الدرج، وأشعلنا السجائر. قال: «كان مشروباً لذيذاً». ثم أخرجت مدقة اللحم وضربت هذا الوغد

عدة مرات على وجهه. وكونه سكراناً، عوى كما لو أنه يُذبح.

*

مررت في بعض الأحيان بعد المدرسة إلى المركز الصحي، حيث تعمل أمي، وانتظرتها هناك. يوجد فيه ممر واحد طويل ضيق ممتلئ دائماً بنساء جالسات على مقاعد، ومتلاصقات بعضهن ببعض. العديدات منهن حوامل. حاولت أمي منح كل واحدة منهن الوقت الذي تحتاجه. تنتهي من العمل في وقت متأخر من المساء غالباً.

أذهب عادة إلى المنزل مباشرة بعد المدرسة، أحضر العشاء لوالدتي التي تأكله لاحقاً بدافع الكياسة أكثر منه بدافع الجوع. كثيراً ما ذهبت إلى السرير دون حتى أن تغير ملابسها بسبب إرهاقها الشديد. أنزع حذاءها، وأغطيها ببطانية سميكة. وأضطر إلى انتظار الخشب حتى يتحول رماداً، قبل أن أتمكن من إغلاق باب الموقد والذهاب إلى سريري. ننام أنا والكلب في مكان قريب. كل بضع أمسيات، أشوي حبتي بطاطا في الفحم الخامد المتوهج: واحدة لي، وأخرى له. وعندما تنضجان، نتشارك هذا الطعم اللذيذ. لم تبد الحياة بكل هذا السوء على كل حال.

اقترب موعد عطلة رأس السنة في المدرسة، واقترب معها الإفراج المؤقت عني، أمامي أسبوعان أقضيهما مع جدتي وزوجها. وفي المدرسة لدي زميلتان ودودتان أعود إليهما. انتهى نصف عام من المنفى مع والدتي.

استعدينا للمشاركة في الكرنفال بعد استلام النتائج المدرسية. قررت أمي المشاركة على غير طبيعتها. مزجت بعض الأصبغة في سطل، وعقدت زوايا أحد الشراشف، ونقعته فيه، وعندما جفّ، طوت الشرشف من المنتصف، وخاطت الجانبين، وقصّت فتحة في الأعلى؛ فكانت النتيجة فستاناً استثنائياً ورائعاً. أجلستني بعد ذلك قرب نافذة المطبخ، وأخرجت بعض الأشياء من حقيبة مستحضرات التجميل شبه الفارغة، وبدأت بمكيجتي. نادراً ما لمسنا بعضنا بعضاً. لكن أصابعها كانت تنزلق على جبهتي، تضغط

برفق على أنفي وخدي، وتضفي اللمسات الأخيرة على حواجبي وجفوني وذقني. فاحت من يديها وملابسها رائحة الدواء، عطر أمي المعتاد. أيقظت فيّ تلك الرائحة مع لمساتها حباً، لم أشعر به من قبل: حب أمي.

عندما ناولتني المرآة، انعكس أمامي وجه طفولي مقسوم بين الخير والشر. رسمت تكشيرة مخيفة على أحد الجانبين عبر حز أسود امتد من أنفي حتى ذقني مع حاجب ثابت أشد سواداً. وبدا الجانب الآخر مشرقاً، كما لو أنه مرشوش بمسحوق الذهب مع فم سعيد مرفوع الزوايا. سألت أمي: «من أنا؟». أجابت: «شخصية منفصمة». شعرت وأنا أتيه بين حشد من العفاريت والأرانب والسناجب وبياض الثلج ورجال كعكة الزنجبيل في المدرسة، بأنني أنال الإعجاب. لم أفز بجائزة أفضل زي، لكنني شعرت في أعماق قلبي: أن الشخصية المنفصمة فازت.

ركضت بفرح إلى البيت في وقت متأخر من المساء. لعل والدتي بانتظاري والعشاء جاهز. فأنا كنت سأغادر في اليوم التالي مدة أسبوعين. أردت تطويق عنقها بذراعي وتقبيلها؛ لأشكرها على هذا الكرنفال الجميل، على الشخصية المنفصمة التي استحضرتها مثل صانع المعجزات.

عوضاً عن ذلك، انتظرني كلب مهتاج خارج المنزل. والعتمة والبرد في الداخل؛ لم توقد النار في المدفأة، ولا في موقد الطبخ. سمعت صفيراً غريباً من الممر. كانت أمي مستلقية على السرير، وبجانبها زجاجة من الكحول وبعض الأقراص البيضاء، وحول عنقها ربطة عنق لرجل عجوز حاولت خنق نفسها بها. هرعت إليها، مزقت ربطة العنق اللعينة تلك وأجلستها. غصّت، وسعلت، ثم تقيأت سائلاً فيه الكثير من الحبوب البيضاء. حضّرت لها الشاي طوال الليل. شربته مطيعة، وتقيأت بين الحين والآخر. زحفت إلى جانبها عندما غرقت في النوم. نمت، وأنا بالكاد أتنفس، ورأسي مضغوط على صدرها الأيسر، لأتأكد من أن قلبها ما زال ينبض.

*

لم تأت سيرافيما لرؤيتي مدة أسبوع على الأقل، وأنا لم أبحث عنها. أخبرتني لاريسا نيكولاييفنا: أن زوج سيرافيما في المستشفى. هاجمه رفيق ثمل في بيت الدرج. عدا ذلك كان كل شيء هادئاً. تابعنا أبحاثنا في المعهد. تركت ثلجة الشتاء الأولى طبقة رقيقة بيضاء على الأرصفة الوعرة وأسطح المنازل المتهالكة. لم يتجمد نهر نيفا بعد. وبدا الجسر رومانسياً وهو محاط بالبياض. عيد الميلاد على الأبواب، وتذكرت نوافذ شقتنا القديمة في ريغا، وهي مغطاة بالبطانيات السميكة، وأمي تشعل الشموع على الشجرة، وترتل مع زوجها بهدوء، يهمسان في الواقع، الترانيم:

عجباً، كيف تفتحت وردة

نبتت من جذع صغير

تحدرت من نسل جيسي

كما غنى القدماء...

كان الاحتفال بعيد الميلاد محظوراً. استبدلت العطلة المسيحية بالألعاب النارية، وبالعديد من الساعات التي تدق في الكرملن معلنة السنة الجديدة، وبصوت مذيع يعلن باللغة الروسية: «سنة جديدة سعيدة، أيها الرفاق! نخب السعادة الجديدة».

مشيت على طول جسر نيفا المغطى بالثلوج، وغنيت بهدوء، «عجباً، كيف تفتحت وردة». اعتدنا جميعاً على الاعتقاد بأن جيسي في هذه الترنيمة يعني يسوع. لا يمكن للمرء تصديق مثل هذه القصة العجائبية، ما لم يكن مؤمناً. لم تتحدث والدتي وزوجها عن يسوع أبداً. قرأت عنه في كتب الأستاذ العجوز، التي حملتها إلى غرفتي من كومة الكتب التي رُميت في فنائنا.

لكن الطب تجاوز يسوع -كل شيء مفهوم ومفسر- لا حاجة للإيمان، ويسوع محظور، وعلينا الإيمان عوضاً عنه بـ «أرض

اللوتس» الحقيقية؛ أي: بالشيوعية، التي سيكون في ظلها كل شيء ملكاً للجميع، وتسود السعادة. في الوقت الحاضر، لا شيء يشير إلى أن هذا قد تحقق. مرت ثلاثون سنة على الحرب، ولكن لا أحد يشكو. تعبر كلمات إحدى الأغاني السوفييتية عن نظرتنا المثالية للعالم:

شاسعة أرض ميلادي، بحقولها وغاباتها، وبأشعة شمسها المتموجة. لا أعرف أرضاً من بين مئات الأراضي الأخرى، يمكن أن يكون فيها الإنسان حراً هكذا.

لكن جيسي-يسوع شغلني فترة قصيرة عن هذا، وعن زماني ومكاني القدريّين، وعن الحياة التي ولدت فيها خطأً. فرض علي ميلادي أن أحيا: مصادفة عبثية. ثمة الكثيرون أرادوا الحياة أكثر من أي شيء آخر، ولكنهم لم يولدوا. من قرّر هذا؟

لاحظت في ذلك المساء أن زميلاتي هادئات على نحو غريب ومتحفظات معي. اختفى المزاح المعتاد والقصص الطويلة. واختفت مشروباتنا المسائية المعتادة أيضاً. عرفت السبب في صباح اليوم التالي؛ انتظرني رجلان يرتديان لباساً متماثلاً في الممر. ينبغي لي مغادرة المعهد على وجه السرعة والعودة إلى ريغا ومقابلة رئيس الأطباء المسؤول عني هناك.

ساعدتني لاريسا نيكولاييفنا في حزم حقائبي، وهي تبكي. وصفت لها الرجلين. اعترفت بأنني أنا التي ضربت زوج سيرافيما، وأنني غير نادمة على ذلك. اقتنعت لاريسا نيكولاييفنا أن هذه هي آخر مرة تراني فيها، وأنني سأعتقل في القطار أو ربما في محطة ريغا.

فوجئت بمدى هدوئي وجرأتي. إذاً هذا ما ستكون عليه نهاية الطريق. لم يكن أحد ينتظرني في المحطة. أخذت مكاني في عربة من الدرجة الثانية، حيث فرد الركاب صرر البيض المسلوق والخبز والنقانق والمخللات. وصلصل المرافق بمسكات كؤوس الشاي المعدنية المزركشة. فاحت رائحة لاذعة مع انطلاق القطار، ورفضت بأدب عدة عروض للطعام. عندما هدأ الجميع، أفسحت

رائحة الطعام المجال لرائحة العرق. خرجت إلى الممر؛ لأدخن. تقدم القطار، وتقدم الليل معه. ربما هذه آخر ليلة حرة في حياتي. أعادتني إلى جذوري الهشة: إلى أمي، وزوج أمي، وابنتي. لقد خنتهم. أعود إليهم شخصاً مطروداً، سيُرجم عاجلاً أم آجلاً. أملت أن يعتقلوني في محطة ريغا، ويجنبوني مواجهة عائلتي.

نمت قليلاً، عندما عدت إلى مقعدي. هدهدتني جلبة القطار. ورأيت والدي في حلمي. شكلت الصحف المتناثرة على الدوام في غرفته صليباً ضخماً بالأبيض والأسود. رقد هناك وعيناه مفتوحتان، يشهق ويزفر بصعوبة. اقتربت منه وقلت: «أغمض عينيك، أنت ميت». استمر في التنفس، مؤكداً من دون كلام أنه على قيد الحياة.

لم أجد أحداً ينتظرني في محطة ريغا، كذلك. اقتربت عطلة العيد، وكانت أشجار التنوب تباع في ساحة المحطة. ركبت الحافلة الثالثة حتى أصل لمقابلة رئيس الأطباء. بدت ريغا مثل شابة موصومة، طأطأت رأسها في هواء أواخر كانون الأول/ ديسمبر الهادئ. وقف الناس في طوابير طويلة خارج المحلات التجارية ينقلون وزن أجسادهم بين قدم وأخرى. كان يباع برتقال اليوسفي في إحدى الزوايا، وحصل عليه المحظوظون بالكيلوغرام. تفسح سنة 1977 الطريق لسنة 1978، ومن المؤكد أنكم ستجدون سلطة البطاطا والنقانق والشمبانيا السوفييتية على الطاولات الاحتفالية. وسوف تستمر الحياة العالقة داخل هذه الفقاعة في وتيرتها المقررة. أملت أن يعتقلوني في مكتب رئيس الأطباء.

لم يسلّم عليّ رئيس الأطباء في ممر المستشفى، بل أومأ لي فقط أن أدخل مكتبه. أقفل الباب. ثم جلس إلى مكتبه الكبير، رمقني بنظرة غاضبة، وضرب الطاولة بقبضته.

- لم تدمري حياتك المهنية فحسب، بل وحياتي أيضاً. لقد توسّطت لكِ. وحققوا معي بشأنك: طبيبة، وامرأة، وأم، تضرب جندياً سابقاً، وبطلاً في الحرب الوطنية العظمى. كيف تبررين

فعلتك؟

- ضرب زوجته التي نجحنا في تلقيحها.

احمرّ وجه كبير الأطباء غضباً وقال: «ما الذي نجحت فيه؟».

- قمنا بتخصيب زوجته؛ لأنه لم ينجح بذلك. أحضرت زوجته الحيوان المنوي، ونحن سخناه، وحقناه فيها.

- هل تدركين الحد الذي تجاوزته؟ أنت منفية. لن تحصلي على عمل في أي من مستشفيات المدينة. وبإمكانك شكر ذلك الجندي السابق في الحرب الوطنية العظمى؛ لأنه قدم طلباً بأنه ما من داع لمحاكمتك جنائياً. مع أنك تستحقين ذلك. تستحقين أن توضعي في السجن.

- أود أن أكون في السجن.

أنت لست طبيعية، ولا أفهم لماذا حباك الله هذه الموهبة.

- الله غير موجود كما تعلم.

- اغربي عن وجهي! اخرجي! اخرجي!

خرجت إلى الممر، وملأت رئتي برائحة المطهر والأدوية المألوفة. لقد نفيت من جنتي. سيكون السجن خلاصي. لا شيء أكثر منطقية من ذلك.

*

اعتدت تدريجياً على حياتي الجديدة. وعلى تقلبات أمي، وعلى فترات الإقامة مع جديّ التي شهدت لحظات وداع حزينة. لا أزال صغيرة، لكني شعرت بأنني أكبر من الداخل؛ فأنا مسؤولة عن أمي. ولا أحد يعرف جوانبها المضيئة والمظلمة أكثر مني. لا أحد غيري تأهّب للحاق بها في اللحظات التي أرادت التخلي فيها عن حياتها.

تأتي إلى المنزل مبكرة فجأة، في بعض الأحيان، تشوي دجاجة،

وتخبز كعكة تفاح شهية. نأكل نحن، بينما ينتظر الكلب تحت الطاولة؛ ليأكل البقايا اللذيذة. حكت لي والدتي قصصاً غريبة، أموراً لم يخبرني أحد بها من قبل. قالت: إننا كنا ذات مرة أحراراً. لم أفهم. وأنه كانت لدينا دولتنا الخاصة. احتججت، لكن نحن لدينا دولتنا الخاصة: الاتحاد السوفييتي. قالت والدتي: قبل ذلك كانت لاتفيا فقط، وارتسمت على وجهها تلك التكشيرة المخيفة المألوفة. كررت، كانت هناك لاتفيا فقط، من دون القمل الروسي الذي لم يكتف بالعيش في وطنه، بل زحف علينا جميعاً. يوجد في مدرستنا صفان للاتفيين، وصف واحد للروس، ونحن منسجمون تماماً. فلمَ القمل؟

نحن أطفال البلد جميعاً متساوون. جلسنا القرفصاء في الكولخوز صيفاً بظهور مسفوعة وبأقدام وأياد معفرة بجذوع الشمندر وصفوف الخيار الطويلة بلا حدود. اقتلعنا الأعشاب، وحسبنا الأمتار اللامتناهية المتبقية لإنجاز الحصة التي قررتها امرأة شرسة برتبة عميد. وإذا وجدت عشبة واحدة فقط، وجب عليك تعشيب حصة أخرى. وفي الخريف تبدأ المدرسة بعد الحصاد. ووجب أولاً استخراج الخضروات بالمعازق وتجميعها، ثم تقطيع رؤوسها أو انتزاعها. كان الطقس شديد البرودة أحياناً، وماطراً في أحيان أخرى. لكننا واصلنا التقطيع والانتزاع. كدّت بروليتاريتنا الشابة حد الإرهاق. والحرية هي ذلك البصيص البسيط من السعادة عندما نبتل بالكامل، ونجرجر أنفسنا إلى البيت، ونتنشف قرب موقد دافئ، ونتحصن بثياب نظيفة وبوجبة عشاء.

كانت تقول والدتي: «إنهم ينشئون عبيداً جدداً». بدا ما قالته عن الحرية والقمل والعبيد مبهماً بالنسبة إلي في أغلب الأحيان. اعتدت على عيشها في عالمها الخاص، الذي قبلته في تعايشنا الهادئ. لم أتحدث في المدرسة عن الحياة في المنزل، التي كانت مختلفة تماماً عن حياة أصدقائي في المدرسة.

حدث شيء غريب صباح أحد الأيام في قريتنا الصغيرة. كتب شخص ما بالطباشير على الشارع العام القريب من بيتنا: «دعونا

نحوّل الروس إلى دقيق؛ هذا ما سيملأ حصتنا الغذائية».

افتتح تحقيق في المدرسة، وأنكر الجميع كل شيء. شك الصف الروسي بالجميع، وسرت شائعات بأن المتهم هو أحد البالغين.

استدعيت بعد يومين من الصف إلى مكتب المديرة. جلس رجل يرتدي معطفاً رمادياً بجانب المديرة، التي أخبرتني أن الرفيق يرغب بالتحدث معي.

تولّد فزع رهيب في أعماقي. وارتعبت؛ لأنني سأترك وحدي مع هذا الرفيق في مكتب مديرة المدرسة. لا بد أني شحبت بشدة؛ حتى أجلستني المديرة، وناولتني كوباً من الماء. قالت: «قلبك يخفق بشدة، ربما علينا استدعاء ممرضة المدرسة الآن؟ أو ربما في وقت لاحق؟». ونظرت إلى الرفيق الجالس إلى مكتبها، ينقر عليه بأصابعه السمينة بلا مبالاة. قال للمديرة بخشونة: «لا، اخرجي الآن».

بقينا وحدنا في المكتب. أمسك الرفيق كتفي، وجذبني بعنف لمواجهته.

قال: «توقفي عن الارتعاش الآن، وأجيبي عن أسئلتي: هل حدثتك والدتك عن أي شيء لا يُدرّس في المدرسة».

شرعت بالبكاء. وأدركت في لحظة أنني وأمي الوحيدتان المشتبه بهما في الكتابة بالطباشير على الشارع.

صرخ الرفيق: «اهدئي، وأجيبي على أسئلتي. لن تغادري هذه الغرفة قبل أن تجيبي».

تفاجأت بأنني هدأت. أخذت نفساً عميقاً، وقلت: «نعم، أخبرتني كيف يتكون الطفل. إنها طبيبة، وتعرف ذلك، والآن أنا أعرف أيضاً. وهذا لا يُعلّم في المدرسة».

بدا الرفيق كما لو أن سطلاً بارداً من الماء نزل عليه. تراجع خوفي. وحل محله شعور بأنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء معي في هذا المكان. لن يكتشف أبداً، بأي حال من الأحوال، ما كنت

أعرفه عن الحرية، وعن القمل وعن العبيد. لن يكتشف أبداً.

بدا الرفيق غير مرتاح.

- هل هذا كل ما أخبرتك إياه؟».

- لا. هذا ليس كل شيء. لقد رسمت لي كيف يكمن الطفل في رحم الأم ومدى صعوبة الخروج منه بالنسبة إليه. وعن مدى صعوبة الولادة بشكل عام.

شعرت بالراحة. لاحظت كيف تعرّق وجه الرفيق. وكيف أخرج منديله القذر، ومسح وجهه.

قلت: «يحتاج الطفل إلى قوة كبيرة؛ لينزلق خارج أمه. ويتم ذلك عادة برأسه/ها أولاً».

قال الرفيق: «شكراً، هذا يكفي. ليس لدي أسئلة أخرى».

وقف، فتح الباب، ودعا المديرة التي كانت تنتظر منصاعة في الخارج.

قال الرفيق: «كل شيء على ما يرام».

رأيت ارتياحاً هائلاً في عيون مديرة المدرسة. أخرجتني إلى الممر، وأخبرتني أن بوسعي أخذ بقية اليوم عطلةً، وربّتت على رأسي بلطف شديد.

أخذت حقيبتي المدرسية من الصف، ومعطفي من الخزانة، وتوجّهت إلى جسري الحبيب قرب سكة القطار.

استرحت عند جذع شجرة. كانت هذه حريتي، وقتي. صفّر قطار ليلي من بعيد مُعلناً اقترابه. لم تتوقف تلك القطارات في محطتنا قط.

ساد الصمت عندما تلاشت جلبة القطار. نبض قلبي بهدوء في هذا الصمت، ولم أشعر بالخوف، لا من الغابة المظلمة ولا من الحيوانات التي تؤويها. لم أكن خائفة من أمي، بل قلقة جداً

عليها. وعرفت أن هذه الحال ستبقى هكذا حتى يفرّقنا الموت.

كان مساء غريباً. غليت دلواً من الماء، وأخذت فرشاة قديمة، وخرجت إلى الشارع. تبعني الكلب. سكبت الماء على الكتابة الطباشيرية؛ فاختفت الكلمات تدريجياً مع الغسل والحكّ المتعاقب. أظهرت الأضواء في المنازل المجاورة متفرجين فضوليين من حين لآخر، لكن لم ينظر أحد منهم فترة طويلة. واصلت كشط الزفت بفرشاتي حتى بعد هبوط الظلام. عندما عدت إلى المنزل أخيراً، كان كل ما تبقى بقايا طبشور غير واضحة.

*

خرجت منفية إلى مرآب المستشفى. كانت سيارات الإسعاف تجلب مرضى جدداً إلى مدخل الطوارئ بين الفينة والأخرى. نظرت إلى النوافذ المضاءة، والأجنحة ذات الإضاءة الخافتة، وأضواء غرفة العمليات الساطعة، وضوء المشرحة الأزرق الداكن. كل هذا لم يعد لي. طردت إلى عالم لا أكترث له البتة. عالم لم أكن فيه ضرورية منذ ولادتي.

استنشقتُ الدخان بعمق إلى رئتي. أردت إطالة هذه اللحظة قبل العودة إلى المنزل ومواجهة أمي وزوج أمي وابنتي. وددت تأخير رؤية وجوههم الحائرة، نصف السعيدة ربما، لكنها في الغالب ستعكس ظل الخوف. فقد تتعرض حياتهم الهادئة للمجهول مرة أخرى. أثلجت برفق، فقررت تغيير طريقي. سأسير على طول شارع ميرا وصولاً إلى شارع لينين. قد أجد برتقال اليوسفي للبيع في مكان ما هناك.

تلألأت النجوم الزرقاء في شارع لينين. وزُينت المدينة استعداداً لاحتفالات رأس السنة. تملكتني رغبة في قص شعري وتصفيفه عندما مررت أمام صالون ريغا للحلاقة المضاء بألوان زاهية. كان يدور مصففو الشعر في الداخل حول عدد قليل من النساء المرفهات المعطرات. وقفت هناك أحضن حقيبتي القديمة التي تنبعث منها رائحة السجائر والمستشفى، وشعري الذي لم يغسل

منذ عدة أيام، ولم يصبغ أبداً، معقوداً بربطة مطاطية تحت قبعتي. لم يعرني أحد انتباهاً. وقفت هناك دقيقة أخرى، ثم خرجت. لقد كانت رغبة حمقاء.

توقّفت عند كنيسة القديس ألكسندر نيفسكي الأرثوذكسية أفكر في سيرافيما. هل أخبرت زوجها السافل بالحقيقة؟ هل عانت بسبب هذه الحقيقة؟ هل ستتمكن من حماية طفلها؟

عبرت الشارع، وتجاوزت مقهى فلورا. لم يكن لدى غالبيتنا، نحن طلاب الطب، وقتٌ للجلوس في مقاهي المفكرين هذه. أمضينا أيامنا في القاعات، وأمسياتنا ولياليا في مختبرات التشريح. بدا لنا التسكع في المقاهي كما لو أنه مضيعة حمقاء للوقت.

حيّاني فلاديمير إيليتش لينين الغرانيتي عند التقاطع. لينين هو من طها كل ذلك البؤس المرير، واضطر آلاف الناس إلى هضمه على مدى نصف قرن. ولدت في هذا العبث، وسأموت فيه حتماً. ليس لدي حتى الذكريات التي لدى والديّ. اعتاد أبي التحدث عن الزمن الذي كانت فيه لاتفيا مستقلة، وعن مطعم ميلك، الذي حلّ مكانه اليوم فندق لاتفيا الذي يعانق السماء. التقى هو وأمي هناك خلال استراحة بين المحاضرات، وتناولا وجبة لذيذة. تمشّيا بعد ذلك حول نصب الحرية القريب، الذي كان يعرف باسم ميلدا. يفصل هذا النصب عن تمثال لينين شارع تصطف على جانبيه الأشجار، ويدير التمثالان ظهريهما لبعضهما بعضاً. التقط أحد مصوري الشوارع صورة لأبي وأمي بجانب ميلدا مقابل لاتس واحد.

أدار لينين ظهره أيضاً للكاتدرائية الأرثوذكسية التي حُوّلت إلى قبة فلكية. بادرة حضارية، كما لو أنه لا يعرف شيئاً عن البحيرة البعيدة في سيبيريا، حيث أغرق المئات من القساوسة الأرثوذكس بناء على أوامره.

أجل، الله غير موجود. لقد أكدت ذلك بالفعل. لكن، يوجد سماء، وتوجد نجوم. وانا قد طردت من جنتي.

دخلت إلى القبة الفلكية؛ لأشعر بالدفء. كان مقهى «أذن الإله» في أحد جوانبها. وهذا مقهى آخر لم أتمكن من زيارته عندما كنت طالبة. طلبت قهوة مع قدح من مشروب البلسم. بدا الزبائن مسترخين من حولي. كانوا يجلسون على الأرض. ويرمي بعضهم أعواد الثقاب هنا وهناك. ربما هي لعبة معروفة لهم فقط. وتماوج دخان السجائر في الهواء.

جلست في زاوية، وشعرت أنني كنت حقاً في أذن إله غير الموجود. دخلت إلى هناك في طريق الخروج من جنتي. اقترب من طاولتي رجل هزيل بشعر طويل. طلب قدحين آخرين من مشروب روح البلسم، ورغب في التعارف. ادعى أنه في الثالثة والثلاثين من عمره، نفس عمر جيسي عندما مات.

قلت: «هذا عمري أنا أيضاً». وسألته: «هل جيسي اسم ذكوري فقط؟»، لفظتها «جيسي» كما لو أني عمدته في سري، كما جاء في ترنيمة عيد الميلاد.

أجاب:«هذا سؤال جريء. ماذا تعملين لكسب عيشك؟».

قلت: «كنت طبيبة».

- والآن؟

- وهل لدينا أي فكرة عن المستقبل؟ هل ثمة معنى في العيش هنا، وفي التفكير في الآتي؟

وافق جيسي جداً: «معك حق. لا معنى يذكر للحياة في العيش هنا. العالم يتطور في الخارج. على مدى عقد كامل، وفيما نحن نجلس جبناء في هذه المقاهي، هم يموتون من أجلنا». قال الجملة الأخيرة همساً.

همست بدوري: «من هم؟».

- جان بالاش الذي أضرم النار في نفسه في عام 1969، ومات في وسط براغ.

قلت لجيسي: «ولدت ابنتي في عام 1969».

بدا أنه لم يسمع، وتابع: «جانيس جوبلين وجيمي هندريكس اللذان قضيا بجرعة زائدة في 1970، من أجل حريتهما وحريتنا». ثم علا صوته: «من أجل الحرية بشكل عام، هل تفهمين؟ وكذلك جيم موريسون في العام التالي مباشرة. بينما نحن نتعفّن هنا، ونتظاهر بأننا أبطال سريون. لا شيء حقيقي هنا، لا في الشوارع ولا في المقاهي. مجرد حياة مثيرة للشفقة في كل مكان. الجميع يتظاهرون بالحياة في كل مكان، هذه ليست حياة. نتظاهر في الشوارع بأننا مواطنون سوفييت مطيعون، ونتظاهر هنا بأننا معارضون. لا توجد حرية هنا».

استمعت إلى جيسي، إلى الأسماء التي لا تعني لي شيئاً. فأنا لا أعرف سوى حقيقتين دامغتين عن هذه الفترة: ولدت لي ابنة، وخُصّبت بويضة امرأة صناعياً في مختبر الفيزيولوجيا في كامبريدج، وهذا ما اكتشفته من خلال مجلة أرسلها خالي من لندن في حزمة ملابس.

جيسي - أردت مقاطعة سيل الكلام الهامس هذا – جيسي: هل تدرك ماذا يعني ذلك؟

لا توجد ألغاز، ولا توجد إرادة إلهية. ولا توجد أي حرية: إما أن تولد أو أن تموت. وهذه المناورة الطبية تثبت ذلك.

لكن جيسي ثمل، وواصل الهمس عن الحرية التي سلبت منا، وعنهم، أولئك الذين عاشوا وماتوا من أجلنا.

تلاشى همسه أخيراً. شبك يديه مع بعضهما بعضاً، وأحنى رأسه، واستسلم للنوم. وتناثر شعره الطويل على كتفيه الهزيلين.

وقفت بهدوء، وغادرت أذن الإله.

*

كوب من الحليب الدافئ وفوقه قشدة طازجة. حساء الحليب. جيلية الفواكه بالحليب. كانت تلك أسوأ مصاعبي في المدرسة.

شرب الحليب إلزامي في بلدنا. كرهت الحليب وكل ما ارتبط به. تصارعت معه كما لو أني أتصارع مع شيطان لا مرئي يحاول أن يتلبسني، قاومت رغم كل الصعوبات. حاولت أن أشربه في جرعات كبيرة، وأن لا أتنفس من أنفي حتى لا أشعر بطعمه. وكثيراً ما هرعت إلى حمام المدرسة بعد شرب كأس الحليب محاولة التقيؤ.

انقسم يومي المدرسي إلى ما قبل الحليب وما بعده. كان وقت ما قبل الحليب، قبل وجبة الغداء، لا يطاق. لا أستطيع التركيز. وما يلتمع أمام عيني، ليست القارات أو مدقات الأزهار وسداتها، ولا أوتار المثلث وأضلاعه، بل كؤوس الحليب. لكن، في فترة ما بعد الظهر أكون نشطة وشديدة الانتباه. أستطيع حساب الجذر التربيعي، وفهم صيغة المصدر المضعّف. يصبح كل شيء مفهوماً حالما يختفي طعم الحليب اللعين من فمي. لسوء الحظ، اشتد وضوح معركتي مع الحليب إلى درجة أن المعلمة كتبت في دفتري اليومي: أن على أمي الحضور إلى المدرسة من أجل اجتماع.

جررت نفسي إلى المنزل مثل كلب مضروب. فأنا وأمي نعيش حياتين منفصلتين. وليس مستحسناً إشراكها في سري الخاص بالحليب. لكن، ما باليد حيلة، الآن.

بعد ظهر اليوم التالي، رأيت أمي تقترب من المدرسة من خلال النافذة في أثناء حصة العلوم. كانت ترتدي معطفاً مهلهلاً وقبعة كروشيه. رأيتها كيف توقفت أمام أحواض الزهور؛ لتشعل سيجارة. لقد اتحدت مع سجائرها. وتغلغلت رائحة دخان السجائر في ملابسنا دائماً. والغريب في الأمر، أنني فضلت هذه الرائحة على رائحة الحليب.

لم تكن رؤية أمي في المدرسة أمراً عادياً على الإطلاق. بالنسبة إلى الآخرين، فهذه هي الحالة المعتادة؛ لأن الأهل يأتون لاصطحاب أطفالهم بسبب الطريق المعتمة والمقبرة التي تخيفنا. تخيّلت كيف سيكون الأمر لو أنها كانت في انتظاري، في انتظار

ابنتها. إنه شعور لطيف. أمي مختلفة. لكنها أمي، وهي تنتظرني بعد المدرسة. كانت المعلمة تشرح شيئاً عن النباتات أحاديات الفلقة وثنائياتها، وأمي تنتظرني هناك أمام أحواض الزهور.

قرع الجرس. تدفق سيل الطلاب السعداء من المدرسة، جاهزون للارتماء في أحضان أهلهم والعودة إلى المنزل لتناول وجبة عشاء حميمة. لم نعرف أنا وأمي كيف نتصرف. دنوت منها، ووضعت ذراعي حولها مثلما فعل الآخرون، وقفنا هكذا فترة وجيزة. ثم أمسكت يدها وقدتها إلى الداخل. كانت الممرات فارغة، والكافتيريا مرتبة لكنها مشبعة برائحة الحليب. يقع مكتب المعلمة بعد الكافتيريا. طلبت من أمي الدخول، وأخبرتني أن أنتظر في الخارج. لكن كأني دخلت معها أيضاً؛ لأن انتشار الصوت في الفضاء الفارغ نقل كل كلمة قالتها المعلمة لأمي إلى أذني أيضاً.

- هل لاحظت كرهها للحليب؟

- ليس لدينا حليب في المنزل.

- لكنه ضروري لنمو الطفل. إنها تعمل على إراقة كأسها اليومي من الحليب في المدرسة، أو إعطائه لأحد زملائها، أو ابتلاعه والركض إلى الحمام. هل يبدو هذا الأمر طبيعياً بالنسبة إليك؟

- ربما لديها حساسية من الحليب.

- لا تسخري مني. أنت طبيبة. هل ثمة شيء يدعى الحساسية من الحليب، أكثر الأغذية صحة ونبالة؟ ألا تخشين، بوصفك أم، من ألا تنمو بشكل كامل من دون حليب؟

- ربما لأنها لم تحظ بحليب أمها إطلاقاً.

- لماذا؟ هل عانيت مرضاً ما؟

- نعم. لم أكن أريد أن أبقى على قيد الحياة، ولم أرغب في إرضاعها حليب أمٍّ لا تريد الحياة.

تكتكت الساعة في غرفة الغداء الفارغة. تكتكت بصوت مرتفع جداً إلى درجة شعرت فيها بأنني مجبرة على عد التكات. رفرفت الحمامات في البرك خلف النوافذ. وتغلغلت رائحة الحليب في طاولات غرفة الغداء وكراسيها وجدرانها. كان الصمت لا يطاق. انتظرت أن تطرد المعلمة والدتي من مكتبها.

- لن أخبر أحداً بما أخبرتني إياه الآن. فلا يمكن التكهن بالعواقب. أرجو أن تتحدثي مع ابنتك عن الحليب. لا نريد تعذيب الطفلة.

انفتح الباب، وبان على وجه المعلمة تكشيرة معبرة: مسكينة أنت، طفلة مسكينة. قلنا أنا وأمي وداعاً بكل تهذيب.

الجو ربيعي في الخارج. أشعلت أمي سيجارة مباشرة. كيف تستنشق الدخان وتزفره بشراهة في الهواء الطلق! مشينا صامتتين، لكن قلبي وثب فرحاً، فأنا عائدة من المدرسة إلى البيت مع أمي. أردت أن يمتد هذا الطريق إلى ما لا نهاية. إذا امتد إلى ما لانهاية يمكننا السير بصمت، ويمكنننا التحدث، والحالتان ممتعتان.

قالت أمي كما لو أنها قرأت أفكاري: «دعينا نغيّر الطريق».

انعطفنا باتجاه الطريق القديم المؤدي إلى النهر. امتد على يسار الطريق حقل فيه منزل خشبي قديم في أقصى طرفه. يعلم الجميع أن صاحبة المنزل ليست عاقلة تماماً؛ لذلك يبقون على مسافة أمان من المنزل. لكن أمي أمسكت يدي بقوة وسارت بي مباشرة إلى تلك المنطقة المخيفة. لم يكن هناك أحد في المنزل. سمعنا الأبقار تخور في الحظيرة. تتبعنا الصوت على الرغم من مخاوفي الرهيبة. جلست العجوز هناك تحلب أبقارها، وعيناها مثل نقطتين سوداوين خلف نظارة سميكة. تدفق الحليب الدافئ إلى سطل. بدأت أشعر بالغثيان، وحاولت التملص من يد أمي، لكنها أمسكتني بقوة. سكبت صاحبة المنزل ما حلبته من السطل إلى إبريق، ووضعت بجانبه كوباً.

قالت مثل أصغر ساحرة في حكاياتي الخيالية: «اشربي أيتها

الصغيرة».

كررت أمي: «اشربي أيتها الصغيرة». ثم قالت مرة أخرى مستشعرة مقاومتي المتزايدة: «اشربي».

حسناً إذاً، ستفهمين عندما أموت! وشربت الحليب الدافئ، وأنا أبكي وأكاد أختنق. أضافت دموعي طعماً مالحاً علي الحليب، لكني ابتلعته حتى تنتهي المعركة.

أعطتني والدتي في المساء رسالة موقعة موجهة إلى معلمتي، تطلب فيها عدم إجباري على شرب الحليب؛ فتحول غضبي إلى امتنان.

اختفى الغثيان المألوف في صباح اليوم التالي. لم تعد تتملكني رؤى الحليب بدل القارات، ومدقات الأزهار وسداتها، وأوتار المثلث وأضلاعه. لم يضع لي أحد كأس الحليب عند الغداء، لكنني تذوقت القليل من حليب جارتي. له نفس طعم الحليب الذي لا أطيقه، لكن بإمكاني أن أشربه أو لا، اكتسبت القليل من الحرية.

*

لم تتخذ مريضاتي -في كثير من الأحيان- قرار إنجاب الأطفال أو عدم إنجابهم. أذعنت النساء المنهكات للعشاق الذين يرفضون قبول الحمل، أو للأزواج الذين لا يريدون تحمل عبء المزيد من الأطفال. كنّ على استعداد لتحمل آلام الإجهاض غير الإنسانية دون تخدير. جلس قبالتهن في الممر صف طويل آخر من النساء المستميتات للحصول على طفل. لكن الطفل لن يأتي مهما حاولن.

أحياناً، فتحت النساء قلوبهن بعضهن إلى بعض خلال ساعات انتظارهن الطويلة خارج عيادتي. كل شيء خطأ الرجال، في مطالبتهم النساء التخلي عن أطفالهن، أو في رفض السماح لهن بالحمل. وفوق ذلك، الرجال أنفسهم غير مكترثين. اعتبروا أن هذا جزء من العالم النسائي. وأن الطب السوفييتي سيعتني بهن.

داومت في المركز الصحي في بلدتي في غرفة ضيقة فيها موقد حطب متهالك، وكرسي فحص نسائي قديم وأدوات فحص لا يمكن الوثوق بها. كان هذا هو الطب السوفييتي.

فكرت في سيرافيما كثيراً، ولم تعد سوى صورة مشوشة الآن من عالم أغلق بابه أمامي تماماً. جاءتني مرة في المنام، وقالت أنها فقدت طفلها بعد كل شيء. كان لها نفس الوجه الجميل، لكن عينيها مغلقتان. تكلمت، وعيناها مغلقتان. استيقظتُ غارقة في العرق البارد. حاولت التخفيف عن نفسي، بأن ذلك يعني العكس تماماً، كما يحصل في كثير من الأحيان مع الأحلام؛ إذ يكون الأبيض أسود والأسود أبيض. الحياة موت، والموت حياة. ويشهد الممر الضيق في المركز الصحي، حيث تجلس نسائي يومياً في الطابور، على صدق ذلك.

كان مساءً عادياً. تبعثر فوق مكتبي الفوضوي عدد لا يحصى من بطاقات تسجيل المرضى غير المكتملة، وفنجان قهوة مشروب نصفه، ومنفضة سجائر، وعدد من الشرائح المجهرية مع لطخات ينبغي جمعها وإرسالها إلى أقرب مخبر في المدينة، ومصباح مع ضوء مرتعش، وكومة حطب بجانب الموقد، وستارة من المشمع، وأريكة جلدية ضيقة، وصوت دقة الباب المزعجة المعتادة.

عرفت ما سأراه عندما أفتح الباب. يواصلن الجلوس والانتظار بصبر وبأبدية لا نهاية لهما في الأفق.

فتحت الباب بعد مهلة قصيرة. وها هو: صف طويل من النساء المنتظرات، وفي نهاية الصف، جلست ابنتي، ركبتاها مضغوطتان معاً بحذر، وحقيبتها المدرسية على كتفيها. لقد جاءت لمقابلتي.

هكذا جلست هناك، لا تدرك سبب هذا الطابور. ولا تدرك أنها عاجلاً أم آجلاً سيكون لديها سببها للانضمام إلى الأخريات. كما لا أحد يعرف، ضمناً أنا، إن كانت ستمتثل في الطابور، أو ستتخذ قرارها بنفسها. ضفرت شعرها بنفسها، وعقدت فيه شريطة زرقاء على نحو غير متقن.

انتظرت بكل صبر حتى نهاية يوم عملي. أغلقنا المركز الصحي، وعدنا إلى البيت. قالت ابنتي: «سيكون المنزل بارداً، ولا بد أن الكلب نام في سريري الآن». كان الطقس بارداً جداً، والثلج يتهشم تحت أقدامنا. قالت فجأة: «دعينا نذهب إلى تلك التلة حيث يمكننا رؤية السماء فوق النهر». أشعلت سيجارة. كل ما يحيط بنا صامت ومظلم. بدأ كلب بالنباح في مكان ما. مشينا عبر المقبرة القديمة. لاحت الأضرحة البيضاء من بين شواهد القبور الرمادية والسوداء. قالت ابنتي: «إنها آمنة الآن». أضاء القمر أحد المنحدرات، وامتدت ظلال أشجار الأرز على الغطاء الثلجي. قالت ابنتي مرة أخرى: «إنها آمنة الآن»، وأمسكت يدي التي أضعها في قفاز من دون أصابع.

بدأ منحدر التلة خلف المقبرة، ووصل الثلج حتى ركبنا. لا يوجد آثار أقدام أخرى أو طريق واضح. وقفت في منتصف الطريق، وشعرت بضيق في نفسي. أشعلت سيجارة، ووقفت هي تنتظرني. ثم بدأت تخوض في الثلج أمامي؛ لتصنع لي فراغات كي أمشي عليها. مشت ابنتي أمامي بحيوية، غطى الثلج ضفائرها، وتأرجحت حقيبتها المدرسية على ظهرها.

توقفنا عند مطلع التلة. تألق تحتنا منحدر حاد صغير محاط بالأشجار في ضوء القمر الأبيض.

قالت ابنتي: «انظري إلى الروعة التي تتلألأ الأجرام السماوية بها!».

السماء مليئة بالنجوم فوق النهر، ويحدق في منتصفها تماماً وجه القمر المدور.

امتد خلفنا خط آثار أقدام ابنتي، الذي تسلقت التلة به. وانبسط أمامنا حقل مغطى بالثلج البكر.

*

إنها فترة عطلة المدرسة. الجميع يستعدون ليوبيل ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى التي يحتفل بها في هذه الأيام، في شهر

30%

تشرين الثاني/نوفمبر طبعاً. لكن، جاء تشرين الثاني -في ذلك العام- دون أن ينتبه له أحد تقريباً. لم أتمكن من زيارة جدتي وزوجها في عطلة ذلك الخريف؛ فوالدتي ليست على ما يرام. تمكنت بالكاد من الاستمرار في الذهاب إلى المركز الصحي. ونامت في وقت مبكر من المساء. وقعت الأعباء المنزلية كلها على كاهلي. مهما بلغ شوقي لجديّ، لن أترك أمي وحدها. غسلت كنزتي البيضاء، وكويتها، لكنني قلقت بشأن الثقب الموجود في وشاحي الطلائعي الأحمر، فهو صغير جداً بحيث لا يمكن إصلاحه، لكنه ملحوظ مع ذلك. قررت دس الوشاح داخل سترتي الزرقاء، كما لو أن الأمر عفوي، وسوف أحرص على ألّا أقف في الصف الأول، مع مجموعة مجلس الطلبة الرسمي. وأهم أمرٍ: أن أؤدي التحية بشكل صحيح، وأصيح بوضوح: «مستعدون دائماً!». وألا أنسى أبداً هذه الصيحة:

يسار، يسار،

يسار، يسار!

في وسط ريغا

نصب مهيب

بلون الغرانيت البني المحمر

لينين مصقول بالبرونز

يسار، يسار،

يسار، يسار!

جلست أمي في ذلك الصباح على حافة سريرها، تفتش في حقيبة يدها عن أقراصها. كنت أساعدها في بعض الأحيان، فأخرجها من البطانة. لكني لم أجد شيئاً في هذه المرة؛ لذلك بحثنا عنها معاً. بدت أمي عاجزة جداً. حضرت لها قهوة ثقيلة، على أمل أن تساعدها. انتعشت أمي بكوب كبير من القهوة مع ميجارتها الأولى. ثم جهزتني للذهاب إلى المدرسة؛ كي لا أتأخر.

سرّحت جميع المدرسات شعورهن تسريحة البومبيه. وارتدين بدلات رسمية وكعوباً عالية. رفعت المدرسة علم وطننا الأم العظيم في الخارج، وغنينا النشيد. المقطع الأول هو الأثير لدي:

حررنا هذه الأرض الحبيبة.

سنولد سعداء جيلاً بعد جيل

هنا يتنهد بحرنا، وحقولنا مليئة بالزهور

هنا تتألق مدننا، هنا تصدح ريغا.

وكذلك اللازمة التي يركز المغنون فيها على الكلمة الثانية بحماس:

لاتفيا السسسووووووفييتية، لتحيا للأبد.

علها تتألق في إكليل الزهور السوفييتي

لم أفهم المقطع الذي يليه والذي يشير إلى أن صداقتنا مع الأمة الروسية العظيمة ستهزم أعداءنا. من هم أعداؤنا؟

يختم المقطع الثالث واللازمة النشيد. أنجزت جميع المهام المطلوبة ميكانيكياً. غنيت مع الآخرين، لكنني كنت أفكر بأمي فقط. سيطر علي خوف من شر مرتقب.

يسار، يسار!

تذكرت الرسمة التي رسمتها أمي في شقتنا، في المدينة، وأنا جالسة في حضنها.

يسار، يسار!

الأم مع طفلتها متحدتان بحبل سري، وسعادتهما المتبادلة.

يسار، يسار!

لا أشعر بأي فرح هنا. كنت أعد الثواني حتى ينتهي هذا

الاستعراض الرسمي بأغانيه وهتافاته التعبوية كلها. سأرتدي معطفي، وأهرع إلى المنزل عندما ينتهي. ربما تحدث معجزة؛ ويكون كل شيء على ما يرام. ستكون أمي في العمل، أو ربما تنتظرني في المنزل مع الدجاجة المشوية وكعكة التفاح.

يسار، يسارا!

مستعدون دائماً!

استرح!

وأخيراً انتهى! ما إن خرجت من القاعة حتى انطلقت بسرعة الريح إلى خزانتي في الممر، سحبت معطفي، وهرعت إلى المنزل.

أمي راقدة على السرير وشاحبة جداً. لم أشعر بتنفسها. ضغطت على صدرها بكلتا يدي، ونفخت في فمها. هذا ما تعلمناه في المدرسة بدمية مطاطية منفوخة.

«يسار، يسارا!» صرخت وأنا أبكي وأواصل محاولة التنفس الاصطناعي لها.

«يسار، يسارا!»

فجأة أنّت أمي بصعوبة، وشعرت بقلبها ينبض بقوة تحت يدي من جديد. تدرج اللهاث حتى أصبح تنفساً منتظماً. سحبت البطانية عنها؛ لأنها بدت بحاجة ماسة إلى الهواء. الشرشف مبلل تحتها، ينبغي عليّ تغيير ملابسها والشرشف بأقصى سرعة حتى لا تصاب بالبرد. وعلي أيضاً إشعال موقد الحطب.

*

هذا أعمق من نوم، وأعمق من حلم. بدا كما لو أنني أتجول في مشاهد من حياتي: كانت أمي تكوي مريلة المدرسة، وزوج أمي يغلّف لي دفاتري، وابنتي تخوض فجأة في حقل مغطى بالثلوج، أردت اتباع آثار أقدامها، لكنني دوماً متأخرة جداً، وأضعتها. ثم

رأيت بعد ذلك أبي يقطع الشجيرات الحراجية، أردت الركض إليه؛ لأقول له أن يعود إلى رشده، لكنني لم أستطع؛ لأني بلا ساقين، كما بدا.

ظهرت سيرافيما بهالة من النور الأبيض. كانت عارية وجميلة، وبشرتها ناعمة ومتوردة، وثدياها لدنين ومكورين، وساقاها نحيلتين يغطيهما وبر أبيض خفيف. كانت جذابة للغاية، ومطواعة للغاية. توجهت إليها، وقبّلت التجويف الصغير في عنقها. حاسة شمي حادة مثل حاسة شم كلب. كنت متوهجة للغاية، كما لو أنني محمّصة في الشمس. استجابت سيرافيما لقبلتي، لمست ثديي؛ فانقبضا واستسلما ليديها. كانت يداها رطبتين، فانزلقتا بسهولة فوق كتفي وذراعي وفخذي. فكت الشال الذي لففت به جسدي لسبب ما. كنت شرنقة، وأرى سيرافيما أمامي فراشة جميلة فاتنة.

عرتني جزئياً، وشعرت بقشعريرة. احتضنتني، وسرت فجأة موجة دفء حنونة من جسدها إلى جسدي. بدا أنها لفتني على نحو أوثق من الشال. سمعت قلبي ونبضي، لكن ربما كان ذلك نبض سيرافيما. اختلط النبضان ببعضهما بعضاً. جثوت على ركبتي، واحتضنت ساقيها الناعمتين بكل امتنان.

لم يكن هناك شقاء ولا عناء. كانت الحياة بكل أعبائها اليومية البائسة بعيدة في مكان ما. هل هذا احتضار؟ مُنحت كل هذا الإحساس بالسعادة للتعويض عن عذابات الأرض كلها. أردت أن تدوم هذه اللحظة إلى الأبد، نبض الحياة في معبدي مقابل ساقي سيرافيما. لكن شخصاً ذا قوة مهولة سحبني بعيداً عنها. لم أستطع المقاومة. ولم تساعدني سيرافيما التي وقفت هناك بهية بلا حراك. لكنني تشبثت بقوة، بقوة كبيرة، بركبتيها، بربلتيها، بكاحليها، بأصابع قدميها، إلى أن انزلقت من قبضتي؛ لأن لا قوة لدي للمقاومة. ابتعدت عنها. غادرت سيرافيما بالنور الأبيض وشالي بيديها. وسحبني مستنقع الحياة ثانية.

تحسنت أمي بسرعة. جاءت ممرضة من المركز الصحي إلى بيتنا، وأعطتها حقنة يومياً على مدى أسبوع تقريباً. تنهدت الممرضة بعمق في كل مرة أتت فيها، وهي تقول لأمي: أن عليها أن تتعافى بسرعة؛ لأن مريضاتها يسألن عنها باستمرار. وأن عيادة والدتي مليئة بالحلويات والزهور، فهل تحضرها إلى هنا؟ قالت أمي: «لا، وزعيها على زملائنا».

اعتنيت بأمي بأفضل ما أستطيع. كتبت لي رسالة طلبت فيها تبرير غيابي عن المدرسة. كنا نجلس في الصباح على سرير والدتي، ونتناول الإفطار معاً. وفي منتصف النهار نتناول طعام الغداء الذي أعده أنا. ونأكل وجبات خفيفة فقط عند العشاء. قرأت لي من كتبها، من رواية موبي ديك طبعاً. أعلنت أمي بصوت ضعيف قبل كل قراءة: «نادوني إسماعيل». لم أفهم القبطان آهاب، ذلك الإنسان الخارق الشرير المختل عقلياً، وهوسه بالحوت الأبيض. إنه كتاب مليء بالموت من وجهة نظري. لكنه يبهج أمي بشكل واضح.

كان وقت عودة أمي إلى الحياة اليومية طيباً. دخنت أقل، ولم تتناول أي أقراص، على الأقل أمامي. استعادت رغبتها في الطعام، وأثنت، ربما للمرة الأولى، على وجبات الطعام التي أعددتها. سألتني وهي تتلذذ بالطعام أو ترشف الحساء: «من علّمك هذا؟ كيف اكتشفت ذلك؟ نعم، إنك فتاة كبيرة الآن. هل حقاً عمرك ثلاثة عشر عاماً؟».

وصل زميل من المدرسة في أثناء استراحتنا، يحمل خبراً بشأن إزاحة الستار عن نصب تذكاري في قريتنا، بجوار محطة السكة الحديدية تماماً، غير بعيد عن جسري الحبيب، قرب القضبان. تبين أن دبلوماسياً روسياً قتل قبل أكثر من خمسين عاماً في محطة بلدتنا المغمورة. أصبح بطلاً في روسيا، وبالتالي بطلاً في لاتفيا الآن. نبذت والدتي كل هذا بوصفه لعق أحذية، وهذا أحد تعابيرها الأثيرة. لدي أسئلة كثيرة لها. ما الذي يدفع شخصاً ما لفعل ذلك ومن هو؟ أوضحت والدتي أنه عندما كانت لاتفيا حرة، لم يكن عليك لعق الحذاء الروسي، «أما الآن فعلينا بناء نصب

تذكاري لجاسوس مشبوه».

لم أفهم عما كانت تتكلم. لدي مهمة أكبر بكثير من التفكير في لاتفيا المكبّلة. يجب علي، بمناسبة إزاحة الستار عن النصب التذكاري، إلقاء مقطع من قصيدة فلاديمير مایاكوفسكي بعنوان «القارب»، أهداها لبطل محطة سكة الحديد. على الرغم من أنني حاولت بجد تعلم اللغة الروسية، فإن الإلقاء من دون ورقة مكتوبة أمرٌ شاق! توسلت إلى أمي أن تساعدني. وعلى مدى أيام، استهلت فترة قراءتنا ب «نادوني إسماعيل»، وانتهت بمحاولاتي اليائسة لتذكر مقطع القصيدة وتعليقات أمي الساخرة:

نحيا وعلى شفاهنا قسم صارم

ولأجل هذا القسم سنطلق الرصاص

بعيداً، بعيداً

(أمي: دعيه ينطلق ولو مرة)!

حتى يكون هذا العالم خارج روسيا ولاتفيا

وطناً واحداً مشتركاً

(أمي: قال هذا بشكل جيد، الشقة الإنسانية الاشتراكية!)

في عروقنا دم وليس ماء.

نندفع عبر أصوات الرصاص.

(أمي: الكلاب، الكلاب الروسية!)

لذا عندما نموت، قد نصبح

قوارب وأبيات شعرية وأشياء أخرى خالدة.

(أمي، «نادوني إسماعيل!»)

ساعدتني تعليقات والدتي بشكل غريب على تذكر هذا المزيج المرهق من الكلمات والسطور، والألفاظ التي ربطت لساني

اللاتفي. وأصعب ما يقال في اللغة الروسية، هو مصطلح المهجع الـذي يعادلـه بالصـعوبة ،(chelovechynim obshchezhityem) تقريباً مصطلح السكة الحديدية الضيقة (šaursliežu dzelzceļš) في اللغة اللاتفية. بدأت والدتي تحب هذه اللعبة. وبدأت تعلمني إضـفاء المشاعر على إلقائي. قلدت ساخرة صوت رجل أجش، وسرعان ما تضاعف ضحكنا. في النهاية كنت ممتنة من كل قلبي للدبلوماسـي الروسـي علـى إطـلاق النـار عليه بدقة في محطة السـكة الحـديدية الخاصـة ببلـدتنا، وأكثـر امتناناً لمایاكوفسكي لمنحي وأمي هذه اللحظات النادرة من السعادة.

ألقـيت المقطع الشعري بحماسة شـديدة، إلى درجـة أن معلمتـي الروسية انفجرت بالبكاء، بينما خططت معلمتي اللاتفية لإرسالي إلى مسابقة الإلقاء الإقليمية.

رجعت وأنا أقفز قفزاً إلى البيت، إلى أمي، أناثر أوراق الخريف، وأصيح، «نادوني إسماعيل! نادوني إسماعيل!».

لم تكن أمي فـي المنزل. اضطرت للعودة إلى مركزها الصحي. أطعمت الكلب بكل فرح، وأشعلت موقد الحطب، وبدأت أقشر البطاطا. شعرت بتيار هواء بارد آت من غرفة أمي، حيث تركت النافذة مفتوحة. وقعت منفضة سجائر على السرير بجانب رواية موبي ديك، وفيها مؤشرة كتاب. بتعبير أدق، قطعة صغيرة من الورق مغطاة بكتابة ناعمة، مُزّقت من كتاب. تفحصتها بحذر؛ لأنني لم أرها من قبل في منزلنا. وكان هناك أيضاً أرقام مطبوعة بدقة على الورقة. قرأت بجانب الرقمين أحد عشر واثني عشر، ما يلي:

فقال لها ملاك الرب، هو ذا أنت حبلى وستلدين ولداً، وتسمينه إسـماعيل، لأن الـرب سـمع آلامك. وسيكون إنساناً وحشياً؛ يـده مرفوعة على كل إنسان، ويد كل إنسان مرفوعة عليه، ويعيش في مواجهة جميع إخوته.

*

غريب، كم أصبحت الأيام والليالي خاوية، عندما غادرتْ للبقاء مع والدتي وزوجها في المدينة، لم يغادر الكلب غرفتها، بل بقي متكوراً على السجادة تحت طاولتها. بدا كل شيء فارغاً وبارداً وصامتاً، أراحني قضاء الليل في المركز الصحي. لم أذهب مع ابنتي أبداً؛ لأنني لم أرغب في إضفاء الكآبة على أوقات لقاءاتهم القصيرة أصلاً.

كانت تزورهم أيام السبت والأحد في العادة. لقد أصبح الوقت مُرهقاً في هذه الأيام تحديداً. لقد شعرت بالضيق، كما لو أنني لا أستطيع أن أكون حرة أبداً. ذهبت إلى المركز الصحي بين الحين والآخر، جلست في مكتبي أملأ بطاقات التسجيل التي لا معنى لها. أحياناً، كنت أمكث ساعات في السرير، أدخن، وأقرأ. لكن، بدا كل شيء مضيعة للوقت غير هادفة. لم تبهجني المجلات الطبية الروسية التي تصلنا أيام الجمعة؛ فالعلوم الطبية السوفييتية تتعثر في تقدمها، ويمكن منها استقاء إنجازات بسيطة على نحو يثير الشفقة. غطت المقدمة على كل شيء، إعلانات الحزب والنظام الخرقاء، التي تهدف إلى إظهار مدى اهتمام النظام بالمواطنين السوفييت، خاصةً الأمهات والأطفال:

يمنح «وسام الأم البطلة» للأمهات اللواتي أنجبن عشرة أطفال وربينهم، ويمنح «وسام الأم المجيدة» للأمهات اللواتي أنشأن تسعة أطفال، و«وسام الأم من الدرجة الأولى» للأمهات اللواتي لديهن ستة أطفال. إن جميع الأطفال متساوون في الحقوق في الدول الاشتراكية، بصرف النظر عن الأصل الإثني أو العرق أو مكان الميلاد أو الوضع الاقتصادي.

لم أثر أي أسئلة بين المريضات قط، ولم أنصح أياً منهن بالإجهاض مطلقاً. لكن، بدا لي أن إنجاب طفل وإقحامه في هذا العالم، في هذا الزمان والمكان، غير منطقي مثل كل شيء يجري حولنا. لقد عُزلنا عن العالم، وقدر لنا أن نحيا حالة السائرين نياماً، وحكم علينا أن نسميها حياة. ووجدت نفسي في قلب هذه السرنمة، أعزز اللامعنى يوماً بعد يوم، وأكرّسه مثل عامة الشعب.

لكن، إن تفكيري غير سليم؛ فمن غير ابنتي يمكنه إنارة هذا الوجود المسرنم؟ لقد تحملتُ هذا المنفى إلى جانبي. بعد أن طردتُ من مهنة الطب السوفييتي الرائعة، ومن مؤتمراتها، ومن رشاواها ورشاتها، واستبعدت من العلم واكتشافاته المستقبلية الرائعة، ومنعت من المشاركة في الاكتشاف المذهل: التخصيب البشري خارج جسم الإنسان.

أتاحت لي هذه الأيام الخاوية وقتاً للإسهاب في التفكير. طفت على السطح مشاهد من الماضي، وتذكرت والدي وهو يخبرني عن الفرص العديدة التي أتيحت له ولوالدتي لمغادرة لاتفيا إلى ألمانيا في نهاية الحرب. كانت أمي في الشهر الثامن من حملها بي، وكان لا يزال هناك وقت، قبل أن يغزو الجيش الأحمر ريغا. فرّ الناس أينما استطاعوا سبيلاً؛ خاطروا بحياتهم، اختبؤوا في الغابات قرب البحر بانتظار قوارب الصيادين المتوجهة إلى جوتلاند في السويد. كانت أمام والدي فرص آمنة نسبياً للمغادرة، لكن أمي رفضت. أرادت أن تنجب طفلتها في أرضها الأم.

لم يحدد قرار أمي حياتها فحسب، بل حياة والدي وحياتي أيضاً. لمتها -غير متعمدة- على كل شيء، وتذكرت نفسي وأنا في سن ابنتي، عندما بكت والدتي في المطبخ في كل مرة تلقت فيها الرفض المعتاد لزيارة شقيقها في لندن، لم أشعر بالأسف من أجلها على الإطلاق. ولكنها، على عكسي، أم صالحة ومهتمة. دللتني كما تدللني ابنتي الآن وتهتم بي.

اعتدت الذهاب إلى غرفة ابنتي خلال تلك الأيام الفارغة. كل شيء أنيق جداً هناك، على عكس فوضاي: صور والدتي وزوجها في إطاراتها التي صنعتها بيديها مسنودة إلى مصباح المنضدة القديمة، وسنجاب وصحن صغير من الصلصال شكلتهما بيديها في ورشة عمل الخزف، وكتبها ودفاترها مرتبة، وتحت المكتب وعاء ماء للكلب، وأقلام ألوان زوج والدتي المبرية موضوعة في صندوق خشبي، وعلى عتبة النافذة وضعت أحد مجلدات موسوعتي الطبية، مع أزهار وأعشاب مرصوصة في طيات صفحاته، وقواقع أصداف حلزونية عثرت عليها على ضفة النهر.

127 دقيقة متبقية 36%

ولقد رتبت ملابسها الداخلية وجواربها في دروج خزانة الملابس القديمة، وعلّقت لباسها المدرسي على علاقة في الخلف.

هز الكلب ذيله بكل أدب، وواصل انتظارها. أغلقت، الباب وعدت إلى غرفتي المليئة برائحة الدخان.

*

نادراً ما دخلت أمي إلى غرفتي. لكني كنت أشعر أن رائحة عطرها عالقة فيها، في كل مرة عدت فيها من عند جديّ. ربما نامت في سريري بعض الوقت؟ أفرغتُ حقيبتي من الملابس المغسولة والمكوية واستعددت للأسبوع الدراسي المقبل. لم تسألني والدتي أبداً عن حال والدتها وزوجها. تقبلتُ تحياتهما لها فقط.

لم أخبر والدتي أن غرفتها في الشقة أصبحت الآن لي. رتبت الكتب المتبقية من مكتبة أمي على الرفوف بعناية. ووضِعت مزهرية من الورود على المنضدة بجانب طبق فيه قطع من الحلوى اللذيذة، في اليوم الذي وصلت فيه. ولا شك أن جدتي قامت بتهوية الغرفة؛ لأنه بالكاد يمكن شم رائحة الدخان المتغلغلة في الأريكة والكرسي الكبير. تفوح من الستائر الآن رائحة مسحوق الصابون. سريري مرتب على الدوام، ووضع عليه مجموعة نظيفة من الملابس والملابس الداخلية التي تركتها في المرة الماضية.

عشت في هذه الجنة يومين أسبوعياً وعدة أيام خلال العطل. اقتنيت لاحقاً هامستر أبيض في غرفتي، أسميته بامبي. كره بامبي قفصه، واعتاد أن يدور فيه مثل شيطان رأى صليباً. عنى حضوري لبامبي: الحرية؛ لأني سمحت له بالتجول في غرفتي قدر ما يشاء، مخلفاً وراءه فضلات صغيرة. اعتاد أن ينتظرني انتظار حليف. اختفى بامبي ذات مرة ليلة كاملة، بحثنا عنه وناديناه كثيراً، لكنه لم يجب، أو لم يسمح بالقبض عليه. وقفت في صباح اليوم التالي جارتنا البولندية القاطنة في الطابق السفلي أمام بابنا حاملة بامبي. لقد دخل إلى مرحاضها عبر أنابيب الصرف الصحي مكدوماً ودائخاً إلى حد ما. قال له جدي

وهو يمسكه من مؤخرة عنقه: «أيها العجوز، علينا جميعاً العيش في قفص، اعتده».

عندما جئت في المرة التالية، قدمت جدتي لي صديقة لبامبي، هامستر بنية صغيرة، أسميتها روزي تمبلويد. أملنا أن تريحه، وتساعده على بدء حياة عائلية هادئة في قفصه. حملت روزي. ونام بامبي متكاسلاً، ومتكوراً في زاوية القفص معظم الوقت. شغلت روزي نفسها بجمع نشارة الخشب لصنع عش. ولم يعد بامبي يبدي أي اهتمام بها. وأصبح من الصعب التعرف إلى المناضل السابق من أجل الحرية.

حدث شيء فظيع بعد ذلك في زيارتي التالية. بدأ عش روزي بالتحرك، وخرجت منه مخلوقات متناهية الصغر من دون فراء، زقزقت بنعومة. عندما رآها، وقف بامبي على كفيه الخلفيتين، هز نفسه، وأمسك المولود الجديد بكفيه الأماميتين مثلما يمسك جزرة أو شريحة بطاطا، وبدأ في التهامه مبتدئاً برأسه. لقد التهم أطفاله، بتلذذ. سحبت جدتي عش روزي من القفص، مع ما تبقى منهم. ماتوا خلال الليل جميعهم، وماتت روزي بعد بضعة أيام. عاد بامبي تدريجياً إلى عاداته القديمة. عاش من أجل وقته الحر خارج القفص.

احتقرت بامبي، وتمنيت لو أنه مات. ما الذي افتقر إليه في قفصه؟ طعام، وعش دافئ، وزوجة وأولاد، هل دمر كل شيء لمجرد أنه أراد الركض في غرفتي؟

قررت أن أحرم بامبي من الخروج من قفصه إلى الأبد. انتظرني أسبوعاً بعد أسبوع آملاً في رحمتي. وصلت، انتصب وألصق أقدامه بقضبان القفص، ونظر إلي كما لو أنه يقول: «أرجوك، أرجوك أخرجيني». لكن قلبي تحجر.

انتهت حياة بامبي في أحد أيام الآحاد وأنا أغادر ريغا. قالت جدتي: «لم يأكل مدة أسبوع تقريباً». تكور في زاوية، ونام بهدوء. فقد بطنه الناعم المستدير. لم يبد بامبي رد فعل عندما دخلت الغرفة، ولم يقم بأي طقس من طقوس التضرع المعتادة.

انحنيت على القفص، ولاحظت أن بامبي يتنفس بضعف شديد. أخفى أنفه الصغير في عشه، وتحرك معطفه الفرو الأبيض بضعف نحو الأعلى والأسفل. أشفقت عليه، وفتحت باب القفص: «بامبي، أيها المتوحش العجوز. هيا اخرج، دعنا نتسابق، اخرج، ثمة حرية هنا». لكن بامبي واصل النوم والتنفس الضعيف. بعد لحظة، وفيما أنا أراقبه، اضطرب وتيبس، وتصلبت كفوفه وأنفه. لففت بامبي في منديل قماش متجاهلة اعتراضات جدتي وزوجها، ثم وضعته في كيس، ووضعت الكيس في حقيبتي المدرسية. قلت لهما: «ليس لديكما أي مكان لدفنه هنا». ودعتهما، وغادرت المحطة.

مرت المحطات خارج نافذة القطار الواحدة تلو الأخرى. لم أفكر في الركاب الذين أتفحصهم بدقة في أحوال أخرى؛ لأرى إن كان بينهم شخصية مشبوهة. ولم أفكر في الطريق الذي يمر عبر المقبرة القديمة، حيث أسحب عادة نفساً عميقاً، وأحاول الجري دون النظر يميناً ولا يساراً. ولم أفكر في جدتي وزوج جدتي اللذين دائما ما يكونان في بالي عندما أعود إلى أمي. وغالباً أبدأ في البكاء عند ذلك، وأضغط أنفي على نافذة القطار. فكرت بدلاً من كل ذلك في بامبي الملفوف في منديل، الذاهب إلى مثواه الأخير في حديقة منزلنا. أين سيدفن، تحت شجرة التفاح أو تحت شجرة الياسمين، أم سيدفن ببساطة قرب السياج من دون ضريح، بسبب جريمة التهام أولاده؟ ربما كنت أنا السبب في موته. على الأرجح مات بسبب توقه للحرية. لكن هل حكمت عليه ظلماً؟ كيف يمكن للمرء أن يأكل أطفاله، ثم يموت توقاً إلى الحرية؟

ما كان يبدو رحلة طويلة في العادة، مرَّ بسرعة هذه المرة. وصلت محطتنا الصغيرة فجأة. كان الفصل ربيعاً تقريباً، ويدوم ضوء النهار فترة أطول في المساء. مما يعني أن بإمكاني المشي في المقبرة دون قلق. أزهرت شقائق النعمان بجانب السياج. ربما ينبغي دفن بامبي هنا في المقبرة؟ لم أملك شجاعة كافية لذلك. بالإضافة إلى أنني أردت أن أري بامبي لأمي. وعلى الرغم من أن بامبي لا يستحق الزهور، فإنني أحضرت باقة صغيرة.

كانت أمي تشرب القهوة، وتدخن وتقرأ في غرفتها، ونافذتها المطلة على الحديقة مفتوحة. فرحت لرؤيتي.

شمشمني الكلب. فتحت حقيبتي، وأخذت صرتي إلى غرفة أمي. قلت لها: «مات بامبي. هل يمكننا دفنه في الحديقة؟».

سألت أمي: «ماذا حدث؟».

أجبتها: «لقد أكل أولاده، ومات بعد ذلك توقاً إلى الحرية».

قالت والدتي: «هامستر شجاع».

صرخت: هل تسمين هذا شجاعة؟». وانهمرت كل الدموع التي حبستها، دموع على فراق جديّ، ودموع لفقدان بامبي أيضاً، وللحظات حريتنا معاً.

- «تقولين: شجاع؟ لأكله أطفاله؟». وبكيت بحرقة، وأنا أعاني من مشاعر الكراهية والحب التي تتنازعني.

قالت أمي: «عنيت بشجاع، تصميمه على الحرية. دعينا نذهب وندفن بامبي».

هدأ بكائي رويداً رويداً. تركنا الكلب في الغرفة، وخرجنا إلى الحديقة المبرعمة. أين إذاً؟ تحت شجرة الياسمين، أو تحت شجرة التفاح، أو ببساطة بجانب السياج بسبب فعلته الآثمة؟

قالت والدتي: «يجب أن تسامحي الموتى». أخذت مجرفة، وحفرت حفرة صغيرة تحت شجرة التفاح. غطيتها بشقائق النعمان، ووضعت بامبي هناك. رقد الهامستر الأبيض بين الزهور البيضاء. ضربتان من المجرفة، واختفى عن أعيننا، مندمجاً مع التربة السوداء الفواحة.

أشعلت أمي سيجارة، ومكثنا قليلاً أمام قبر بامبي.

سألت أمي: «لكن لماذا أكل أطفاله؟».

قالت أمي، وهي ترتجف كلها، وقلبها ينبض بشدة: «ربما أنقذهم

من الحبس في القفص»، واحتضنتني بقوة، احتضنتها بنفس القوة، وبقينا هكذا لحظة. امتزجت رائحة التربة المحفورة حديثاً برائحة دخان السيجارة. غرد عندليب في مكان ما في الفضاء. سوف يزهر الكرز قريباً.

*

بدأت عيادتي الصغيرة جداً في المركز الصحي تخنقني رويداً رويداً. ذاع صيتي، وتضاعف عدد مريضاتي. أتين لرؤيتي من المناطق البعيدة، مسلحات بالزهور وصناديق الحلوى وأطعمة المزارع الطازجة. نسي المشرفون أمري، ظناً منهم أنني غير مؤذية في هذا المكان النائي، وأن عقوبة «جريمة» لينينغراد كانت قاسية بما فيه الكفاية.

لم يبد أن زملائي السابقين في المدينة يهتمون لحالي. خافوا من إظهار اهتمامهم في الواقع، وبالتالي: خافوا المخاطرة بتدمير مهنتهم المزدهرة ذات الأجور السخية، التي تثريها الآن الرحلات إلى دول الاتحاد السوفييتي الصديقة، وحتى إلى الغرب المتعفن. عرفوا جميعاً أن عقوبة الاتصال بي ستكون زيارة إلى مبنى الزاوية سيء السمعة بضباطه من المخابرات الروسية، وزنزاناته، وعنابر احتجازه قبل الترحيل. تمثلت الحرية أمامي في شكل دراسات في لينينغراد. لم أعرف كيف أتعامل معها؛ ولهذا أرسلت إلى المنفى في هذه الغرفة الخانقة في المركز الصحي.

نجحت في التجربة التي أجريتها لسيرافيما عدة مرات. اتبعت إرشاداتي النساء اللاتي لم يتمكن من الحمل، وأحضرن حيوانات أزواجهن المنوية، وحدثت المعجزة، كما أطلقن عليها. أصبحت في أعينهن صانعة المعجزات. ولكن، لم يكن هناك معجزة في هذا، بل مجرد مصادفة عرضية محظوظة، ساعدتها، وقدمت بعض الحيل الطبية التي تعلمتها. خفف ذلك بطريقة ما من وطأة شعوري بالإهانة. لقد عنت لي أكثر من الجولات اليومية للفحوصات النسائية والتشخيصات التي تمكنت من القيام بها بتلك الدقة والسهولة، إلى درجة بدت وكأنها لعبة صبر. أغضبت،

في خيالي، رئيس الأطباء الذي لا يمكن أن يتخيل، حتى في أشد أحلامه سوداوية، أنني أنا المنفية، يمكن أن أكرر شيئاً كهذا.

لكن مع كل ذلك، من الممكن أن يكون المنفى قد أنقذني. لقد واجهت وفاة مريضة واحدة فقط. ولو بقيت في مطحنة اللحم في ريغا، لاضطررت أن أتقبل وفاة المرضى كأمر طبيعي، إحصاء طبي لا مفر منه. أتذكر هول حادثة تلك الوفاة الوحيدة. تواصلت آلام المخاض لدى المرأة، وهذا في حد ذاته لم يكن أمراً غير عادي. كانت منهكة، ونبضها ضعيف ونبضات قلب الطفل أضعف. قررت إجراء عملية قيصرية. ساعدني في غرفة العمليات طالب لا يزال أمامه الكثير ليتعلمه. أخذ التخدير مفعوله بشكل جيد، فتحت وأخرجت طفلاً قوياً وفي صحة ممتازة. ولم يبق عليّ سوى خياطة الجرح. أومأت للطالب برأسي، أنه لم تعد ثمة حاجة لمساعدته. حينها، نزع الطالب قفازاته فوق رحم المرأة المفتوح؛ وتساقطت في الجرح كل البودرة المتعرقة داخل القفازات.

وقف هناك ينظر بعينين مفتوحتين إلى البودرة التي تمتزج بدماء المرأة، مصدوماً بما فعله. اندفعت نحو الجرح محاولة تنظيفه. لكن، لم يكن بوسعنا فعل الكثير لإنقاذ الموقف. على الرغم من أن المرأة تلقت جرعات من المضادات الحيوية على الفور، فإنها أصيبت بعد بضعة أيام بالتهاب إنتاني وبتسمم عام. ولم ننجح في إنقاذها. كتب رئيس الأطباء تقريره: أن حالة الوفاة عرضية؛ لأن الطالب كان نجل صديق مقرب جداً له، وهو مسؤول رفيع المستوى. وانفتح أمامي الطريق العلمي العظيم إلى لينينغراد. في تلك الليلة تسببت بمشهد مريع لعائلتي في المنزل. ابتلعت المهدئات مع الفودكا، ثم حبست نفسي في الحمام، وصرخت.

تكرر لدي حلم غريب عدة مرات في هذا الريف الهادئ. وقفت في حقل فارغ، ودنت مني امرأتان. عرفتهما: واحدة منهما سيرافيما، والأخرى المرأة الميتة. أتت إلي سيرافيما، وقالت إنها ليست على قيد الحياة. وقالت المرأة الميتة إنها على قيد الحياة. ارتبكت، ولم أعرف ماذا أقول. المرأة الحية ميتة، والميتة حية. استيقظت

وأنا أتصبب عرقاً.

كان الصباح الباكر، وابنتي تضع الأطباق بهدوء، وتستعد للمدرسة. شممت رائحة القهوة اللذيذة التي تعدها لي. لم يكن أكثر من مجرد كابوس، خفّ الألم في صدري.

*

أحضرت كوباً كبيراً من القهوة دون سكر ولا حليب إلى غرفة أمي كالعادة.

قالت: «حلمت حلماً فظيعاً الليلة الماضية». لم نعتد على سرد أحلامنا بعضنا لبعض، كانت الأحلام أحلاماً، والواقع واقعاً.

الواقع عبارة عن هذا: كنا أحياء، وشكلت الأشياء الروتينية أيامنا، وأصبحت الأيام أسابيع، والأسابيع شهوراً، والشهور سنة. التحمت مع بعضها بعضاً بشدة، مثلما تلتحم الكتل الصلصالية في ورشة صناعة الفخار التي أحضرها مرتين أسبوعياً في المركز الاجتماعي. يكون الصلصال الرطب في كتل كبيرة مغلفة بالسيلوفان، ذكّرتني بقطعة الزبدة الكبيرة التي يقطعها صاحب المتجر إلى قطع صغيرة بسلك يشبه إلى حد كبير السلك الذي يقطع الصلصال. مدربتنا نحاتة جاءت من المدينة، ومثل أمي فاحت منها رائحة السجائر والكحول على الدوام. توزع قطعاً من الطين المقطع حال بدء الورشة. علمتنا العديد من التقنيات، على سبيل المثال: كيف نصنع صندوقاً من الطين في قالب ورقي. ومع ذلك، أعطتنا حرية عجن الصلصال وتشكيله بالطريقة التي نراها مناسبة. اعتادت أن تقول لنا، اتبعوا فطرتكم، وهي تسحب قبعتها البيريه المرقطة باتجاه أحد عينيها، وتلف نفسها بقطعة من القماش تسميها البنش، وتشعل سيجارتها التالية باستمتاع. اتبعنا تعليماتها.

كان الصلصال صلباً في البداية، ويصعب عجنه. قاوم أصابعي، ثم ارتفعت حرارته تدريجياً، وبعدها أصبح لدناً ومطواعاً. لدي في المنزل الآن طبقان بحواف ناتئة، وسنجاب وميداليتان نقش

عليهما «احتفاء بمناسبة يوم 8 آذار/ مارس»، محاطتان بأزهار مزخرفة ذات ألوان لامعة. أعددتهما؛ لتكونا مفاجأة لأمي وجدتي في اليوم العالمي للمرأة. لكني اليوم أردت صنع شيئ أميز.

تخيلت رسم أمي، كانت ذكرى ضبابية. حاولت أن أتذكر كيف بدا الجنين داخل الرحم، يشبه إلى حد كبير حبة فاصولياء كبيرة، لكن مع ملامح بشرية يمكن تمييزها. مكور قليلاً، ومتقوقع داخل نفسه. لم يكن شكلاً سهلاً. في البداية، كان جنيني مجرد كتلة غير متمايزة. عجنتها بأصابعي، وبسطتها على الطاولة، أمطها حيناً، وأضغطها حيناً. سألتني المدربة عما أحاول صنعه، عندما رأت حيرتي. أجبتها: «طفلة لا تزال في رحم أمها». أطفأت سيجارتها، وساعدتني في تكوين شكل أملس منحن. قالت: «ليس عليك تشكيل صورة دقيقة». لكنني أردت تشكيلها بالدقة التي بدا فيها رسم أمي في ذاكرتي. والآن، تحول الرأس ليكون كبيراً جداً، والذراعان والساقان نحيلة وصغيرة للغاية.

غضبت من عجزي، وضربت الطفلة الخرقاء محيلة إياها إلى كتلة، وحاولت من جديد. كان الجميع يشكلون الأطباق والحيوانات الجذابة المعتادة. عجنت كرة ملساء مرة أخرى، بسطتها على الطاولة، وصنعت شكلاً منحنياً جميلاً، كما فعلت المدربة من قبل. خفت من المناورة بها أكثر، وخشيت أن أخطئ مرة أخرى؛ فأجد طفلة خرقاء بين يدي. حدقت في الشكل الأملس الأصم. هل سأتمكن من بث الحياة فيه؟ لكن، جاءت المدربة؛ لتتفقد أعمالنا، وتصحح ما قمنا به. لم يكن لدي الشجاعة؛ لألمس شكلي المنحني بعد الآن.

وقفت هناك ويداي مقبوضتان بشدة. لم أستطع فعل شيء لنفسي، ولا للجنين الطيني الممدد على الطاولة. قررت تدميره تماماً، وأنا أشعر بالإحباط؛ فخبطت قبضتي في الشكل المنحني. جاءت المدربة، وقالت: «أرى أنك نجحت في صنعه». حدقت في الشرنقة ذات الأجزاء الثلاثة؛ بدت مخطط إنسان صغير يمكن تمييزه بوضوح. لم يكن بنفس دقة رسم أمي، لكنه قريب منه. أعطيته لأمي. أعتقد أنها أخفته في مكان ما. على الأقل لم ألحظه

في أي مكان في المنزل بعد ذلك.

أسفت لأن والدتي أخفت الطفلة الطينية. فكرت فيها بما هي طفلة سحرية؛ لأن في ذلك المساء، وأنا عائدة إلى المنزل من ورشة صناعة الفخار، شعرت بألم في مغبني. وشعرت فجأة بالحاجة إلى التبول. جثوت خلف شجيرة، أنزلت سروالي الداخلي، ورأيت مشحات من الدم فيه. لم أخف؛ لأن والدتي أخبرتني أن ذلك سيحدث يوماً ما، وبعده سيحدث شهرياً.

أخبرت أمي أنني كنت حائضاً بعد ذلك بوقت طويل. اقترن حيضي مع ألم شديد، وأغمي علي مرتين في المدرسة. لقد جلبت الطفلة الطينية زمناً جديداً.

*

أمر في طريقي اليومي إلى المركز الصحي من أمام الكنيسة اللوثرية التي تضم أرشيفاً للكتب في قريتنا. إنها كنيسة محظوظة؛ لأن الكنائس في الأماكن الأخرى، إما أنها دمرت أو أعيد تصميمها لتناسب احتياجات الكولخوز؛ فأصبحت مخازن للأسمدة وعلف الحيوانات. لم يتحدث والداي قط عن الله. لا أحد تحدث عنه؛ لأنه أعلن بوضوح: إنه ليس موجوداً. لدي قصة واحدة فقط من الطفولة لإثبات وجوده.

جاءت جدتي ذات مرة لزيارتنا، وتركوني في رعايتها ذلك المساء. كانت تصنع بابيرت، وهي الحلوى المكونة من بيض مخفوق وكريما القمح وحليب يطفو في صلصة التوت البري. وصفت لي وهي تحضرها: كيف لُفّت وهي طفلة بالبطانيات والفرو، ووضعت خارجاً على زلاجة في إحدى الليالي الشتوية الباردة. رنت الأجراس الصغيرة المثبتة على اللجام، وجر الحصان الزلاجة إلى الكنيسة. حملت هناك إلى داخل الكنيسة، وهي لا تزال ملفوفة بالبطانيات. رأت في أثناء عظة القس رجلاً بلباس صيفي خفيف في الظلام، خارج نافذة الكنيسة. لا بد أنه كان الله؛ فقد شوهد لاحقاً مستلقياً في خندق تحت إطار إحدى نوافذ الكنيسة بلوحها الزجاجي الكامل. لم يتجرأ أحد على الاقتراب

منه لمعرفة إن كان حياً أو ميتاً.

لم تتسن لي الفرصة للقائه بعد، هذا ما قلته بسذاجة الطالبة للأستاذ المسن، الذي لا شك في أنه كتب تعليقي الملتبس في تقريره إلى رؤسائه. عندما أجبت عن سؤال المحققين في مبنى إنجلز ستريت، لم أكن أؤمن بالله. لكنني فكرت به كثيراً جداً. فكرت فيما إذا كان موجوداً، عندما حملت سيرافيما ومريضاتي الأخريات، وهن مستلقيات على كرسي الفحص العتيق هذا بجلده الصناعي الممزق، ويضعن أرجلهن في ركاب من معدن بارد وغير مريح. لم يعطني أحد، أو أي شيء، أدنى إشارة على أنه كان موجوداً. كيف لي أن أشعر بوجوده؟ وبالإمكان تفسير كل شيء، أو تقريباً كل شيء، من دون وجوده.

جاءت مصادفة. كان الوقت مساءً، وانتهى وقت الاستشارات تقريباً. دُق بابي دقة هادئة. قلت: «ادخل». بدت شديدة الشبه بسيرافيما، رأسها ملفوف بشال كبير، ولا تتكلم اللاتفية. جلست بخجل على الأريكة. إنها تعاني منذ عدة شهور من آلام في المعدة وفي أسفل الظهر. لم تجرب أنواع الشاي فحسب بل المراهم والصلوات أيضاً. لم ينفعها شيء، والآن لم تعد تقوى على تحمل الألم.

صعدت إلى كرسي الفحص، وهي لا تزال ترتدي شالها. طلبت منها خلع سترتها وكنزتها، ورفع حمالة صدرها. احتضنت الصليب فوق صدرها، يشبه الصليب الذي كانت تضعه سيرافيما، وأسلمت نفسها للفحص.

ما كان عليّ سوى رؤية حلمتيها؛ ليتضح كل شيء: غاصتا نحو الداخل، وامتلأ ثديها الأيمن ومنطقة الإبط بالكتل. لم تزر طبيبة منذ خمسة عشر عاماً تقريباً.

قلت لها: «يجب عليك الذهاب إلى المدينة على الفور لإجراء مزيد من الفحوصات الدقيقة. سوف يلي ذلك عملية جراحية دون شك».

سألتني: «هل هو سرطان؟».

أجبتها: «على الأرجح نعم، لكن قد يكون شيئاً آخر. وكلما سارعت بالذهاب إلى المستشفى، كان ذلك أفضل».

قالت وهي ترتدي ملابسها: «لم يسبق لي أن دخلت مستشفى أبداً». كان من المستحيل تحديد عمرها. وجهها ساذج وطفولي، وبشرتها ناعمة، ويداها مهترئتان من العمل وكثيفتا العروق.

قالت: «ربما علي الاستمرار في الصلاة».

قلت بصوت صارم: «أوصيك بشدة بألّا تتباطئي، وبأن تذهبي إلى المستشفى على الفور».

سألتني: «هل تؤمنين بالله يا دكتورة؟».

كررت: «لم تتسن لي الفرصة للقائه بعد». وقبض معدتي إحساس غريب.

- «يا خسارة! إنه واحد من أجمل اللقاءات في الحياة: حب، وإخلاص مدى الحياة. صديق يدعمك، ويسامحك دائماً».

بدا لي ما قالته ساذجاً ومبالغاً فيه. رأيت بعيني المتبصرتين جسدها المليء بالسرطان، الذي، على الأرجح، لم يعد من الممكن أن تنفعه العمليات الجراحية، ولا الله.

قالت: «تعالي، ثمة كنيسة أرثوذكسية صغيرة في الغابة على تلة في أعلى النهر. لا نوافذ لها، سدت جميعها بألواح خشبية. لكن يمكنك الصلاة بهدوء. لا أحد يذهب إلى هناك، إنها آمنة».

- لم أسمع قط بهذه الكنيسة الصغيرة.

- تعالي صباح يوم الأحد. سوف أتلو الصلاة.

كان يوم أحد فارغ من دون ابنتي. تساقطت الثلوج بكثافة، ولم يكن السير عبر الغابة سهلاً، كما لم يسبق لنا المشي في ذلك الاتجاه أبداً. طريق داسته الحيوانات التي تساق إلى طرف

الغابة. ضاق تدريجياً إلى ما لا يعدو ممراً مغطى بالثلوج. في الجانب الآخر من الممر، استكان نهر في سباته الشتوي. بدا وجود الكنيسة هنا أمراً غير معقول. لكن، سرعان ما برز خيالها من بين الأشجار: قبتان صغيرتان مستديرتان، ولم يكن هناك في الواقع نوافذ؛ لأنها سدت جميعها بألواح، والباب نصف مفتوح، وفي الظلام رنم صوت خافت في الداخل المضاء بالشموع. عُلقت أيقونة مضاءة بالشموع أعلى المذبح المتداعي: العذراء مع هالة من نور حول رأسها وطفل بين ذراعيها. وقفت امرأة مواجهة الأيقونة، ورنمت من كتاب صغير. لم أفهم الكلمات، لكنها غمرتني مثل موجة.

ثم هدأت. وفهمت:

أيتها العذراء القديسة مريم، أمجّد رحمتك، وأدعو إليك: طهري عقلي، علميني أن أسلك الطريق المستقيم الذي حددته وصايا المسيح. امنحيني القوة؛ لأستيقظ، وأغني، وأبعد النوم الكئيب. نجيني بصلواتك يا عروس الروح، أنا المغلولة بالخطيئة. احرسيني ليل نهار، أنقذيني من أعدائي الذين يحاربونني. يا واهبة الحياة، يا أم المسيح، هبيني حياة جديدة، أنا التي هزمتني المشاعر الدنيوية. يا والدة النور الأبدي، أنيري روحي المظلمة. أيها الآب السماوي، يا مخلصنا، اجعلني مثوى للروح الإلهية. أنت يا من ولدت الشافي، اشف روحي من العواطف والمشاعر الخاطئة، أنا المرمية في قلب عواصف الحياة، قدني إلى ميناء التوبة. نجني من النار الأبدية، ومن الروح الشريرة، ومن الجحيم.

*

اقترب فصل الصيف. تغير شيء ما خلال الشتاء المنصرم. بدت أمي هادئة ومتوازنة، وانحسر شعوري الدائم بالخوف. أعدّت لي العشاء في عدة أمسيات. وكنا نقرأ معاً في أوقات الفراغ، أو نعمل في الحديقة. جرفنا الأوراق والأغصان المتساقطة التي نمت تحتها براعم خضراء نابضة بالحياة. قضينا أجمل الأوقات في حديقتنا الصغيرة. سوف يزهر كل شيء قريباً. ما زالت الأشجار

العتيقة تحتفظ بحيويتها. أزهرت أشجار التفاح كل عامين أو أقل، وأشجار الكرز والكمثرى كل عام. ستضفي الورود عطرها لاحقاً في الصيف، ثم يليها عطر الياسمين.

عام آخر، ويكون على حياتنا أن تتغير. أقرب مدرسة ثانوية، حيث عليّ متابعة دراستي، بعيدة، ولن أتمكن من المشي إلى المدرسة ومنها. ولا بد من الانتقال إلى مدرسة داخلية خلال الأسبوع.

في اليوم الذي تسلمنا فيه النتائج المدرسية، عادت أمي إلى المنزل في الوقت المحدد. تمكنت من الحصول على قطعتين من الكلير وبعض مخاريط الكريما؛ فحضرت أنا الشاي، ووضعنا طاولة صغيرة وكرسيين تحت شجرة الكرز في الحديقة. ما زالت البرودة تنبعث من الأرض، لكن الهواء عبق ودافئ. ابتسمت أمي عندما فتحت تقريري المدرسي. لم يكن لدي سوى درجة 4 واحدة في التربية البدنية. و5 درجات في بقية المواد -وهي أعلى علامة يمكن نيلها- ربتت هي على رأسي، وانحنيت وقبلت خدها.

عرفنا أننا لن نرى بعضنا مدة شهرين على الأقل: جدتي وزوجها سيأخذاني في رحلة إلى البحر الميت. علينا ركوب القطار عدة أيام؛ لنصل إلى مدينة سيمفروبول، ومن هناك إلى مدينة ألوشتا التي تقع على شاطئ البحر مباشرةً.

شعرت بالأسف؛ لأن والدتي ستبقى وحدها. قلت لها: «لكن لا تقلقي سوف أعود في الوقت المحدد؛ لنذهب ونجمع الفطر».

قالت أمي: «سأكون بخير. تشمسي جيداً، واسبحي، وتناولي الكثير من الفاكهة».

احتضننا مساء أيار.

قلت: «ماما»، وشعرت بالخوف؛ لأنني لم أخاطب والدتي بهذا الشكل أبداً من قبل. « ماما، أود العودة إلى جديّ في المدينة بعد الصف الثامن. يوجد مدرسة ثانوية قريبة جداً من شقتنا، كما تعلمين».

قلتها أخيراً. وشعرت أن صخرة هائلة أزيحت عن صدري.

أخرجت أمي علبة سجائر، أشعلت عود ثقاب ثم سيجارة.

قالت: «لعله الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله». بدت حزينة جداً وهشة إلى درجة أن غصة علقت في حلقي.

- «سوف آتي لزيارتك كثيراً، وما زال أمامنا عام كامل». تحدثت من أجل الحديث فقط.

قالت بصوت هادئ: «سأكون بخير. لكن، كلي قطعة الكلير أو مخروط الكريما. استحققت ذلك بجدارة». وتابعت: «أنت مثلي في حلمي. تكونين في العراء، في وسط دائرة، وتُسحبين من كلا الطرفين، وهذا مؤلم».

لم أفهم هذا الحلم. لكن نعم، آلمتنا هذه الوداعات في كل مرة. حاولت التعود على ألم الوداع وعلى فرح اللقاء الذي يأتي مع كل انتقال من أمي إلى جديّ وبالعكس.

القطار الذي سارع نحو الجنوب أنساني الألم. كانت مقصورتنا نظيفة ومريحة. أحضر لنا الخادم الشاي. أعدت جدتي وجبات لذيذة لهذه الرحلة، وأخذنا جدي إلى المطعم في مساءين متتاليين. لا يمكنك الحصول هناك على دجاج كييف فحسب، بل وعلى الستروجانوف، والشاشليك، ونقانق كوباتي. طلبت جدتي وزوجها كأساً من الكونياك لكل منهما، بينما طلبت أنا شراب التارهون الغازي. سرعان ما حلت محطات السكك الحديدية الصغيرة في أوكرانيا محل الغابات البيلاروسية. رأينا في هذه المحطات عجائز يرتدين المناديل ورجالاً يبيعون الكمثرى والمشمش في دلاء. إننا نقترب من الجنة.

استأجر جدي في محطة سيمفروبول سيارة تشيجولي بيضاء وسائقاً؛ ليقلنا إلى مدينة ألشتاي. سافرنا والنوافذ مفتوحة، وشعثت رياح الجنوب الدافئة شعرنا. كان عالماً آخر. لم أفكر بأمي في أي وقت من الرحلة. اختفت كما لو أن الأمر انتهى بها

إلى كرة غزل تدحرجت بعيداً.

دعتنا صاحبة النزل الذي أقمنا فيه، لتناول بطيخة لذيذة في ذلك المساء الدافئ من نهاية رحلتنا الطويلة. كان خلف طاولتنا عريشة مليئة بالعنب، لامست مجموعة من العناقيد غير الناضجة أفواهنا بالفعل. طلبت إذناً لقطف بعضٍ منها. ضحكت صاحبة النزل، وشجعتني على البحث عن العناقيد الناضجة. نمت في حديقتها شجيرات وأشجار لم أرها قط، وأنضجت ثماراً غير مألوفة على أغصانها.

مشينا ثلاثتنا إلى البحر بعد وجبة إفطار خفيفة في الصباح. ارتدت جدتي ثوباً من الكتان الأبيض، وجدي قميصاً قصير الأكمام وسروالاً فضفاضاً. اشترت لي جدتي ملابس سباحة مؤلفة من قطعتين، لونها برتقالي ومرسوم عليها أسماك. قفزت في فرح عارم مثل مهرة.

ها هو البحر الرائع أخيراً، واسع بلا حدود ويتلألأ في شمس الصباح. داعب الموج المزبد الشاطئ، عازفاً الرق على الحصى. انعكست في الماء الأخضر المزرق الباهي سماء بيضاء صافية. لا يمكن رؤية غيمة واحدة على مد النظر. وقفنا مفتونين على الشاطئ.

صاحت جدتي فجأة، وهي تلقي ثيابها وصندلها: «دعينا نركض يا حلوتي، دعينا نركض».

نزعت ثيابي، وركضنا. أحاطتنا المياه المالحة المزبدة.

قالت جدتي: «إنها دافئة كالحليب».

سبحت إلى جوارها، وعانقتها بقوة. تعلقنا ببعضنا البعض، وتمايلنا في الأمواج وهلة. شعرت بروح أمي تنضم إلينا، والتصقنا ثلاثتنا مع بعضنا بعضاً بقوة. ووقف جدي على الشاطئ يلوح لنا بمرح.

استأذنت في إحدى الأمسيات، عندما جلست جدتي وجدي مع

صاحبة النزل يحتسون كأساً من النبيذ، للذهاب إلى البحر وحدي.

حذرني جدي: «لا تنزلي إلى الماء».

كان الشاطئ خالياً تقريباً من المصطافين بالفعل. ولم تسطع سوى بعض النجوم في سماء هذا الصيف الجنوبي المظلمة. البحر هادئ، ويرتطم الماء بالحِصي متكاسلاً، مالئاً الهواء بصوت يشبه قعقعة أجراس الدمدمة.

فكرت بأمي وبغرفتها الحارة جداً في المركز الصحي، وبطابور النساء اللامتناهي في الممر، وبغرفتها الحارة في البيت أيضاً، وبكوبها اليومي من القهوة وبسجائرها، وبالكتب: الشيء الوحيد الذي تجد راحتها فيه. وفكرت في هذه الأرض والسماء والبحر الشاسعة التي حرمت منها. فكرت في العنب الذي لن تقطفه أبداً من شجرة فوق رأسها، وبصوت أجراس الدمدمة الذي لن تسمعه أبداً، وبالهواء المفعم بالحب الذي لن تتنفسه.

خضت في الماء حتى كاحلي. كانت معي، ولم تكن.

*

النهر دافئ كالحليب. وحدة الحرارة الخانقة لا تخفّ إلا في آخر الليل. شعرت أن النهارات بلا نهاية، وحملت الليالي القصيرة معها بلسم الظلام. أُغلق المركز الصحي في نهاية شهر تموز/ يوليو مدة شهر. وبدأت فترة طويلة من الوحدة واللامعنى. استلقيت عارية في غرفتي المظلمة، أحاول قتل الأيام والليالي.

لم أتمكن من القراءة. تجاوزت الحروف التي تتابعت بعضها وراء بعض مشكلة جملاً عيناي وأفكاري التي تسكعت في مكان آخر. فكرت من حين لآخر في ابنتي وأمي وزوج أمي. حاولت تخيل ثلاثيتهم السعيدة على شاطئ البحر الجنوبي. الفردوس هناك، ولم يكن ينقصه شيء. فكرت أحياناً في الجحيم، وفي واهب الحياة، على الرغم من أنني لم أر تلك المريضة مرة أخرى، فقد مشيت إلى الكنيسة مرتين أخريين، لكنها كانت فارغة وصامتة.

واهب الحياة. عنوان مؤثر، تبدو مقابله عبارتي «الجحيم» و «الروح الشريرة» تافهتين ولا قيمة لهما. ومع ذلك، ما زالتا تستبدان بي.

أقسمنا، نحن الأطباء السوفييت جميعاً، قَسم الطبيب في الاتحاد السوفييتي، على أن نناضل من أجل الحياة والصحة. وأن نوقف خطر الحرب النووية، وأن نخدم شعبنا السوفييتي ووطننا الأم. قوضت الروح الشريرة قسم أبقراط الذي أقسمت به الطبيبة الشابة بجميع الأرباب والربات وأشهدتهم: أنها لن تعطي امرأة دواءً مجهضاً، وأنها لن تحيد عن الفضيلة والتقوى في حياتها، ولا في واجباتها المهنية. وأقسمنا رسمياً: «إذا ما وفيت بهذا القسم، ولم أحِدْ عنه، يحق لي حينئذ أن أهنأ بحياتي وبمهنتي، أما إذا خالفت هذا القسم، وأقسمت كذباً، فيجب أن يكون نصيبي و جزائي عكس هذا».

لقد حدث العكس، وعلقت في لهيب الجحيم.

أغراني المساء المنعش بالخروج أخيراً. كان عبق أواخر زهر الياسمينة قوياً، فحفر الكلب وكراً جميلاً عند جذورها. أخذت منشفة، وأغلقت البوابة، وتوجهت إلى النهر. استحق عناء النهار هذا المشوار المسائي.

أفضى الطريق إلى ضفة طينية حادة، تسربت منها جداول من المياه العذبة، صبت في النهر، وامتزجت بمياهه الداكنة؛ فشكلت تياراً واحداً كبيراً. كان التيار عند هذه النقطة خادعاً، ينعطف فجأة، وقد يحملك بعيداً عن الضفة. لا بد لك من استجماع كل ذرة قوة للسباحة ضده.

نسّم عبير زهور المرج على طول ضفة النهر. واختلطت روائح النعناع البري مع إكليلية المروج والسوسن البري.

جلست على صخرة كبيرة، لا تزال تحتفظ بحرارة النهار الشديدة، وأشعلت سيجارة. النهر هادئ، خبأ تياراته في أعماقه. علا ضباب أمام الضوء المصفر لغروب الشمس. تعارك النهار الأخرق الطويل

مع الليل المخلّص.

أثارت فيّ طائرة هدرت في السماء المظلمة خوفاً وحنيناً. تذكرت نفسي وأنا صغيرة جداً، متأنقة، وممسكة بيد أمي. كنا نسير في الشارع عندما حلقت طائرة في سماء المنطقة، جفلت أمي، وأمسكت بي وركضت إلى أحد الفناءات. ثم هدأت، وواصلنا طريقنا في شوارع المدينة. اجتاحني خوف جديد، وكذلك توق إلى المكان البعيد الذي كانت تسارع إليه الطائرة.

راودني الشعور نفسه الآن عند ضفة النهر، مع انتهاء يوم ووعد بحلول آخر، وآخر بعده. ومثل سجائري التي استحالت رماداً، اقتربت نهاية حياتي.

خلعت ملابسي، ونزلت إلى النهر الدافئ. نهر الحياة الذي سيبرئني من خطيئتي. سوف يغفر لي إنهاء حياة جنين وإفساد الأمومة التي أقسمت على الحفاظ عليها. لعل العكس يتحقق.

*

عدت إلى منزل أمي في نهاية شهر آب/ أغسطس. تركت ورائي الصيف المعجزة في البحر الجنوبي. لفحتني الشمس، وفتّحت شعري. قالت أمي: «إنك تزدادين جمالاً». بدا كل شيء مختلفاً بالنسبة إلي، الآن: أمي، ومسكننا الصغير، والحديقة، والكلب. بدا البيت صغيراً وضيقاً وكئيباً ومغطى بالغبار، لكنه مع ذلك ما زال عزيزاً علي.

قالت لي أمي: «كان الصيف حاراً. وكان متنفسي الوحيد، هي الأمسيات التي قضيتها عند النهر». عاينت هداياي: حبة سفرجل صفراء كبيرة، وصدف، وبعض القطع الزجاجية الملونة المصقولة بفعل البحر، وكستناء صالحة للأكل. قلت لها: «تذكّري، لقد اشتريت لي مثلها من سوق ريغا، عندما طلبت مني العيش معك. أردت تذكيرك بمذاقها».

عبّرت نظرتها عن هزيمة تامة. سأمكث فترة قصيرة، وأغادر. ما زلت أسبح في البحر الأزرق الصافي الهائل، حيث عزفت الأمواج

الرق على الحصي، ووعدت بمستقبل باهر.

أيقظتني والدتي في صباح أحد الأيام، والظلام لا يزال مخيماً. قالت وهي تضع معطفاً مطرياً وحذاء مطاطياً بجانب سريري: «استيقظي، وارتدي ثياباً سميكة». قفز قلبي حماساً، فنحن ذاهبتان لجمع الفطر. لم أكن قادرة على إقناع أمي مؤخراً بالذهاب إلى الغابة. فكنت أذهب عادة وحدي، وأبقى قريبة من طرف الغابة؛ لأنني أخاف من أن أضيع. أما الآن فسنتمكن، لأننا ثنائي، من عبور الغابة جيئة وذهاباً قدر ما نشاء. عقب الموجة الحارة مباشرة، تكون عواصف شهر آب/ أغسطس المطرية هي الوقت الأمثل لجمع الفطر. تواطأنا في مؤامرتنا. سنذهب حيثما تقودنا دروب الغابة، بقدر ما يلزم للحصول على سلة من الفطر.

شققنا طريقنا إلى الغابة مع بزوغ الفجر. كانت السماء ملبدة بالغيوم، وكمن ضباب دافئ في المرج. غرّد طائر منفرد، وسحب منقاره على طول جذع الشجرة، معلناً وجوده. مشينا -أنا وأمي- في الغابة، حيث مملكة الفطر في انتظارنا. انقشعت السماء الملبدة بالغيوم، وبزغ منها شعاع شمس واه ما لبث أن قوي. وسرعان ما غمر الضوء الذهبي الغابة. ارتعشت قطرات الندى في نتوءات أشجار التنوب والصنوبر والبتولا والحور والسراخس، والتمعت شبكات العنكبوت.

مشينا في صمت وتركيز؛ فقد يخيفها الكلام. قبعت تحت السراخس وبين أشجار الحور سويقات ذات جذوع ريانة وقبعات حمراء داكنة. إلى الأمام قليلاً، أخفى غطاء كثيف من الأوراق السوداء قبعات حليبية خضراء بشعة. ثم اندفع من التربة على مسافات متباعدة على طول درب الغابة فطر البوليطس العملاق تحيطه كرات صغيرة لزجة، ومجموعات من فطر الشانتريل والقبعات الحليبية البرتقالية. وتوضع الفطر الغجري والأزرار الخيشومية النحاسية الجافة في الطحالب. حافظنا على صمتنا، مع أننا شعرنا بالرغبة في الصراخ فرحاً. بدأ البخار يتجمع على نظارة أمي. نزعتها ووضعتها في جيبها في النهاية. وجدنا في أحد المروج وراء الغابة فطر الحصان الأبيض على شكل كرات

كبيرة قوية مرفوعة على سيقان قوية، ومحجوبة بتنانير عائمة. أوشكت سلالنا على الامتلاء تماماً.

جلسنا تحت الشمس عند حافة الغابة لالتقاط أنفاسنا والاستراحة بعض الوقت. فتحت أمي بعض الشطائر. كانت الروائح التي تفوح من الطحالب تحتنا، ومن الفطر في سلالنا، ومن اللحاء خلفنا، ذهبية كالسماء.

قلت لأمي: «لا أتذكر كيف علمتني التمييز بينها».

- «بين الفطر السليم والسام؟».

قلت: «نعم، كيف نعرف الصالح للأكل من السام. لا أتذكر كيف حدث ذلك».

- «ذهبنا معاً، وأريتها لك، ووصفتها. أنا لا أتذكر بدقة كذلك».

- «الآن، أعرفها ببساطة. أمشي أنتقيها وأميزها».

- «لا تكوني واثقة جداً. ما زال عليك توخي الحذر».

- «إذا لم أعرف، فلا أقطف الفطر».

سألتني أمي: «لكن، كيف تعرفين أنك لا تعرفين؟».

«لا أعرف كيف، أعرفه هكذا ببساطة. عرفت ذلك منك».

صمتنا مرة أخرى بعد الانتهاء من الشطائر. عبرنا المرج؛ لنصل إلى صف من أشجار الليمون التي مالت أوراقها للاصفرار، وتطاير الزهر اليابس عن الأشجار القديمة. من المفترض ألا يوجد فطر هنا. لكن، ظهر بين الأوراق على الأرض سويقات حمراء مع قبعات رمادية. يشبه شكلها فطر البوليطس، لكن ألوانها جديدة. تحت كل قبعة ثمة إسفنجة صفراء خيشومية غريبة. لم أستطع تمييز هذا النوع من الفطر. تفحصتها والدتي باهتمام شديد.

سألتها: «هل تعرفين هذا النوع؟».

قالت: «لا أعرف». وبدأت في قطع الفطر ووضعه في السلة.

- «لماذا تقطعينه إذاً؟».

أجابت والدتي: «عليّ التحقق منه».

غابت الشمس في طريق عودتنا، وهطلت أمطار خفيفة. عدنا إلى المنزل منهكات، مبللات بالمطر، وسلالنا مليئة.

كنت متيقنة، من أن أمي ستلقي الفطر الذي وجدناه عند أشجار الليمون كسماد حال التحقق منه. لكنها نظفته بعناية ووضعته في كومة منفصلة. شعرت ببعض من الخوف القديم.

تكلمت عندما كانت الأواني الموجودة على الموقد الخشبي تغلي، والمقلاة تئز: «ماما، لن تجربي ذلك الفطر بنفسك، أليس كذلك؟».

قالت والدتي: «ثمة احتمالان فقط: إما أن يكون آمناً أو قاتلاً». لمحت نوعاً غريباً من السحر في عينيها.

سألتها يائسة: «ألست خائفة من أن تموتي؟».

- «كلا، لست خائفة. لكننا لا نعلم ما إذا كان الموت أكيداً بسببه». ارتدّت والدتي إلى الوراء، واستمرت في تنظيف البوليطس، والشانتيريل، والقبعات الحليبية البرتقالية.

أردت انتزاع هذه الفطور الملونة اللعينة الشبيهة بالبوليطس وقذفها في النار.

لكن والدتي سلقتها، وتذوقتها في ذلك المساء بالذات.

قالت بهدوء، عندما أحضرت لها فنجان قهوتها الصباحي الكبير: «كما ترين، تبين أن الفطر آمن في النهاية».

جلست على سرير أمي، ونظرت إليها، وهي تشعل سيجارتها الأولى. وفكرت فيما حدث بالفعل. هل كانت تلعب مع الحياة والموت؟ هل هي المرأة الأكثر شجاعة في العالم، التي أرادت معرفة ما لا تعرفه؟ توصلت إلى ساقيها المدثرتين بالبطانية، وضغطت وجهي عليهما. ولبثنا هكذا قليلاً.

*

عادت دوامة المركز الصحي المعتادة مرة أخرى. لقد فعل الصيف الحار فعلته: توافدن، وتوافدن، أردن التخلص من أجنتهن بالدرجة الأولى. شكرت منفاي على تخليصي من وسائل القيام بذلك من أجلهن. أكدت لهن حملهن فقط. لم أحاول إخبارهن: كيف يمكن للجنين بالغ الصغر تجنب الأداة التي تحاول إخراجه من رحم أمه. أو أن هذا يتم عمداً من قبل كلتينا فقط، أنا ومريضتي. أو أن الرجال غالباً لا يعرفون شيئاً، ويفضلون ألا يعرفوا شيئاً عن ذلك، فهذه هموم النساء في عالم النساء.

فكرت كثيراً في المرأة التي رنمت في الكنيسة. جاءت لرؤيتي أخيراً. أزيل ثديها الأيمن كما توقعت. لكنها تشع عزماً وحيوية. أخبرها الطبيب في المدينة: أن ليس ثمة ما يدعو للقلق في الوقت الحالي. استؤصل الورم الخبيث، وهي خالية منه في الوقت الحالي.

أخبرتها أنني ذهبت إلى الكنيسة عدة مرات، ووجدتها فارغة.

نعم، لا يذهب أحد سواي إلى هناك مطلقاً. لكنها الآن ستذهب بوتيرة أكبر؛ لأنه يجب عليها شكر واهب الحياة، لأن الورم الخبيث توقف. فهو الذي وهب الحياة للطبيب الذي عالجها.

تركت لي صورة صغيرة، نفس الأيقونة التي رنمت لها. وأعطتني شمعة صغيرة رفيعة؛ لأشعلها عندما أشعر بالحزن.

استدارت، وسألتني وهي تغادر، كيف تمكنتُ من تشخيص مرضها.

قلت لها: «من الخبرة، الخبرة الطبية».

قالت: «لا، لا. أرى أنك تستطيعين الرؤية بوضوح أكبر». ودّعتني، وغادرت.

فتحت النافذة لتهوية الغرفة. أثارت ريح شهر أيلول/سبتمبر دوامة من الأوراق الصفراء التي تطايرت، ودخلت إلى غرفتي،

وبعثرت الأوراق على مكتبي. سقطت صورة العذراء، وانقلبت على وجهها. كُتب على قفاها: «مثلك تماماً».

*

بدأت السنة الدراسية كالعادة في أثناء موسم حصاد الشمندر والجزر. لم تتوقف عواصف الخريف. قرفصنا أمام صناديقنا، ونحن مبللون بالمطر، نقطع أوراق الشمندر، ونلف أوراق الجزر. بدت الأكوام في الحقل لا متناهية. أقسمت ببذل كل ما في وسعي؛ كي لا أضطر أبداً إلى الجلوس مبللة بالمطر أمام صندوق، وأنا أرتدي قفازات مغطاة بالطين الجاف وأقطع أوراق الشمندر. سوف أنضم إلى رابطة الشباب الشيوعي بعد عام من الآن. بعد ذلك سيحل فصل الصيف، وسأعود إلى المدينة، وأسجل في مدرسة ثانوية. وتكون بداية عهد جديد.

طال العمل في حقول الكولخوز؛ لذلك لم تبدأ دروسنا إلا في شهر تشرين الأول/ أكتوبر. بعد أن انتقلنا من الحقول الرطبة إلى الفصول الدراسية الدافئة والمشرقة، كنا بحاجة إلى أسبوع على الأقل لاستئناف الإيقاع المدرسي. استبدلت المعاطف والكنزات والجزمات المطاطية باللباس المدرسي الموحد. وتناولنا الطعام في غرفة الغداء المدرسية بدلاً من تناوله في المطبخ الميداني، حيث يحضرون لنا الشاي والخبز وبراميل كبيرة من الحساء، وننهمك في الطعام على الفور.

قالت والدتي في إحدى الأمسيات: «إنه لأمر جيد أنك لن تضطري إلى الخدمة بعد الآن. كل شيء سيكون مختلفاً في مدرسة المدينة».

استشعرت ألم الفراق في صوتها. الألم الذي عرفته، ونخر عظامي طوال هذه السنين. لقد قربتنا سنوات المنفى من بعضنا بعضاً.

تدربنا في المدرسة على تمثيل مسرحية بعنوان «حكايات خرافية عن الزهور». أُعطيت دور زهرة الياسمين. مثّلت الحكاية الخرافية مع أمي في المساء. لعبت هي دور الفنانة التي أحبت

الرسم بألوان مختلفة، وأرادت من زهرة الياسمين أن تستجديها؛ لتمنحها اللون، وأنا زهرة الياسمين التي رفضت الانحناء أو الاستجداء.

قالت والدتي: «إنها قصة جميلة. ترغم الحياة المرء على الانحناء في كثير من الأحيان».

لكنني تقمصت شخصية زهرة الياسمين التي ألعبها حرفياً. لن أنحني، ولن أتوسل، حتى لو رُش وجهي بالطلاء، إما أن أقف مستقيمة أو أنكسر. مثلت دوري بإتقان شديد. وقفت لا أتزعزع على درجات المسرح الصغير داخل غرفة الموسيقى في المدرسة بثوب أبيض مصنوع من شرشف قديم، حتى عندما رشتني الفنانة بالطلاء الأصفر، وعلقت لطخة من الطلاء على وجهي؛ فضحك الناس. لكنني وقفت جامدة مثل سارية، أنظر مباشرة في وجوه جميع من ضحكوا، حتى صمتوا. رن صوت الراوي في الصمت: «حاولي ثنيها - سوف تنكسر».

سرعان ما جرتنا الحياة من القصة الخرافية إلى حقيقة فظيعة: مات بريجنيف في العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر. ظن الجميع أنه خالد لا يموت، لكنه مات. علقت له المدرسة صورة كبيرة ملفوفة بشريط حداد أسود في صالة الألعاب الرياضية. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ أيقنا أن الحرب ستندلع.

أعطتنا المدرسة إجازة في يوم جنازة بريجنيف؛ شريطة أن نشاهد الجنازة على شاشات التلفاز.

بدا هذا حماقة بالنسبة إلى أمي. اشترت زجاجتين من النبيذ، وجلست تشرب في غرفتها. استقررت في الغرفة الأمامية خائفة من اندلاع حرب وشيكة. فتحت التلفاز، ورأيت كيف تجمع الجيش ورجال الدولة في الكرملين في موسكو. عزفوا الموسيقا الجنائزية. والأمر الأكثر فظاعة هو أنهم تركوا تابوت بريجنيف في قاعة الانتظار مع جلبة هائلة. لم ير أحد شيئاً، لكن من المحتمل جداً، بناءً على الضجة التي سمعناها، أنه وقع من تابوته، وانقلب وسقط في قبره على وجهه. فظيع تخيل ذلك.

لم يشعر أحد بالرغبة في الكلام بعد جنازة بريجينيف. ساد شعور رهيب من التطير في الجو. شربت أمي كل مساء. أشعلت الشموع بعد ثلاثة أيام من جنازته، في الثامن عشر من تشرين الثاني/نوفمبر. ووضعت ثلاثة صفوف من أزهار الأقحوان على طاولتها: صفان أحمران وبينها صف أبيض. اتسعت حدقتا عينيها، وتحدثت بغرابة. خفت من البقاء معها في نفس الغرفة. فتحت عليها الباب من حين لآخر؛ لأرى إن كانت بخير.

تمتمت: «قد تحدث معجزة. ربما ستحدث معجزة الآن».

أمسكت كتفيها، وهززتها، وقلت بما يشبه الصراخ: «ماما، كوني منطقية، أي معجزة؟ لن يكون هناك معجزة الآن، بل حرب. ماما، ستندلع حرب، وربما تكون حرباً نووية، وسنموت جميعاً!».

خفت من الحرب ومن أمي مرة أخرى.

- «أتمنى للاتفيا كل الخير!». وأفرغت الزجاجة الثانية من الخمر. ثملت تماماً.

مددتها في السرير، وغطيتها، وفتشت بيأس غرفتها وحقيبتها. ورميت في الموقد جميع الحبوب التي وجدتها.

جلست طوال الليل بجانب سرير أمي، أتفقد جبينها ونبضها من حين لآخر. اندفع نبضها بجنون تارة، وبضعف تارة أخرى، إلى درجة غير مسموعة تقريباً. قطع تنفسها الثقيل سيل من الكلمات أحياناً. أمي التي أثناء نومها الناجم عن الخمر والمخدرات، تحدثت عن المعجزة التي ستحدث، وعن الحرية، وعن العلم الذي سيرفرف بالأحمر والأبيض والأحمر مرة أخرى، وعن الله الذي سيباركه، وعن لاتفيا التي ستحيا إلى الأبد. ثم توقفت، وتنفست ببطء. ثم صرخت: «إنها تندلع، تندلع، تندلع». ثم صمتت مرة أخرى.

استلقيت بجانبها، والتصقت بها. ارتجف جسدي كله. إذا تباطأ نبضها أكثر، سأركض إلى الجيران، ونستدعي سيارة إسعاف. لكن،

تـدريجياً أصبح تنفسها أكثر هدوءاً وانتظاماً. تقطر العرق من جبينـها، ومسـحته. احتـرقت الشـموع بـالكامل علـى الطاولـة، وامتزجت رائحتها بشذا الأقحوان. فتحت النافذة؛ فملأ الغرفة هواء شهر تشرين الثاني/ نوفمبر الهادئ.

*

لم تندلع الحرب. خنقتني الجولة اليومية المعتادة رويداً رويداً. سأكون وحدي قريباً مع هذا الروتين اليومي. سيصبح الخريف شتاء، والشتاء ربيعاً. وينقلب الربيع إلى الصيف، ثم تغادر ابنتي. منطاد حياتي مرتخ أساساً، وسوف يرتخي أكثر. وحياتي التي تنسل مثل كلب مجلود من المنزل إلى المركز الصحي، ومن المركز الصحي إلى المنزل، ستذوي أيضاً.

يجب عليّ العمل بجدية لأنجح مع مريضاتي. تعزز لدي انطباع أنني أتطور من خلالهن. تمكنت من تشخيص أمراضهن من نظرة واحـدة، واتضـح أن جميع تشخيصاتي صحيحة تقريباً. عادت مريضاتي بوتيرة أكبر إلى طبيبتهن المعجزة.

وضعت بعد ذلك قدرتي على تحقيق المعجزات على المحك: ذات صباح، وأنا أعبر الممر مع نسائه المنتظرات، لاحظتها مباشرة. لم تختر أي امرأة الجلوس بجانبها، على الرغم من عدم وجود مقاعد فارغـة إلا هنـاك، فقـد حـافظن علـى مسـافة بينـهن وبينها. لفت وجـهها انتبـاهي علـى الفـور: لـيس وجـه امـرأة، ولا وجـه رجـل. وكذلك يداها، فقد خلعت قفازاتها، وصالبت يديها في حضنها. كفّاها كبيران جداً، وأصابعها قوية. هذه ليست يدا امرأة.

فوجئت بمدى ضآلتها وهي تدخل عيادتي بخجل. لهذا السبب بالتأكيـد بـدا كفـاها ضـخمين جـداً. طلبـت منـها أن تصـف كـل أمراضها، وأن تخلع ملابسها للمعاينة.

سـألتني غـير مصـدقة: «هـل سـتعاينيني حقاً؟». صـوتها ضـعيف وأجش. قالت وقد طفقت الدموع في عينيها: «لقد رفض الأطباء معاينتي في أماكن عدة. لكنني بحاجة لأن أعرف ما أنا».

قلت لها وأنا أناولها كوباً من الماء: «اهدئي، سيكون كل شيء على مايرام، ما اسمك؟».

قالت: «اسمي غريب أيضاً. جيسي. أطلقته عليّ أمي الراعية في دار الأيتام. لطالما عانيت من هذا الاسم، على الرغم من أنني أعمل خادمة».

غسلت يدي، ونظرت إليها وهي تخلع ملابسها السميكة ببطء. يبدو أنني حفزت ثقتها؛ لأنها استمرت في إخباري عن نفسها:

- عندما كبرت، أرتني أمي في الميتم قطعة من الورق، أدرجت في بطانيتي عندما تركت في دار الأيتام. كُتب عليها، «لا أريد هذه الهدية». وأخبرتني أن جيسي تعني «هدية».

لم تكن مرتاحة أبداً وهي عارية. حاولت إخفاء أجزائها الحميمة بيديها الكبيرتين. وقفت أمامي إحدى نكات الله المريرة: جسد رجل صغير، مع فرج امرأة. ولا يوجد في مكان الثدييين حتى مجرد برعم صغير، كان صدر رجل.

أجريت معاينتي.

حدقت في وجهي بامتنان، بعد أن ارتدت ملابسها.

استجمعت شجاعتي، وقلت لها: «أنت جزئياً امرأة من الخارج، لكنك جزئياً رجل من الداخل».

نظرت إلي كما لو أنها أبلغت بمرض خبيث أو عقم. ثم انفجرت بالبكاء. كررت خلال شهقاتها: «لا، أنا امرأة، امرأة، امرأة...». هدأت في النهاية قليلاً، وسألتني: «ألا يمكن اقتلاع ذلك الرجل مني؟».

- «لا يمكن القيام بذلك. في الإمكان تجريب شيء آخر، لكن للأسف ليس لدي إمكانية لمساعدتك».

قالت جيسي وهي تغلق باب العيادة: «شكراً لأنك لم ترفضيني».

جلست هناك، لا أقل حماقة عن جيسي. لقد قيد المنفى يدي، ولم أستطع منافسة الله، على الرغم من أنها أكثر ما رغبت به بعد ذلك.

فمعهد لينينغراد بعيد المنال، وثمة اكتشافات جديدة هناك في مجال العلاج الهرموني. وربما وحده هذا العلاج سيوفر لجيسي طريقاً إلى حياة سعيدة كامرأة. لن تحبل، ولن تحمل طفلاً، لكنها قد تختبر نمو ثديين أو أي معجزة أنثوية أخرى.

يأتي كل شيء في دائرة مكتملة: الجسر المغطى بالثلوج فوق نهر نيفا، وسؤالي الساذج للسكّير في مقهى «أذن الإله»: «هل جيسي اسم رجل فقط؟».

كاد رأسي أن ينفجر. هذا القفص اللعين الذي لا أستطيع فعل شيء فيه. فتحت النافذة. ذهبت جيسي، هدية الله، التي لم أستطع مساعدتها. التفتت فجأة، نزعت أحد قفازيها، ولوحت مودعة وهي ترفع إصبعين في إشارة النصر.

*

لم تندلع الحرب واستمرت الحياة في مساراتها المعتادة. أصبحت في الرابعة عشرة من عمري. وصار بإمكاني الانضمام إلى اتحاد الشبيبة الشيوعي الآن. يجب علي معرفة اللوائح الأساسية. قال مدرسنا لمادة الأدب إن بإمكاني إلقاء قصيدة أوجار فاسيتيس «انزع وشاحي»، على سبيل المثال، بمناسبة الاحتفال بذكرى وفاة الشاعر في تشرين الثاني/ نوفمبر. أخذت بعض مجموعاته من المكتبة. من الغريب أن يكتب رجل واحد مثل هذه القصائد المتنوعة. أعجبتني هذه القصيدة: لدي حدس موجع، موجع أن العالم الذي أعيش فيه، قد يزول في وقت أبكر من عالمكم. لكنها لن تروق للكومسمول؛ لذا أطعت المعلم، وكوفئت بشارة رابطة الشباب الشيوعية، وببطاقة العضوية فيها.

بدا شتاء هذا العام قصيراً. كان الطقس دافئاً ومشمساً في شهر شباط/ فبراير. انتظرنا فصل الربيع، وتدربنا على أغانينا لحفل الثامن من آذار/ مارس. امتلأ قلبي بفرح غير عادي. على الرغم من أن سطوع الشمس لا يزال شتوياً، لكنه أذاب الثلوج والجليد. والآن، يمكن سماع غناء الطيور التي أسكتها الشتاء. يتقدم كل شيء نحو الدفء، نحو الربيع. ثم تأتي العطلات، ثم الفصل

الدراسي النهائي، وأنتهي من المدرسة الابتدائية. ويبدأ صيفي الأول بـدون صـفوف الشمندر والخيـار والـجزر، ويتبعـه فصـل الخريف في المدينة، في مدرسة جديدة مع أصدقاء دراسة جدد.

أصبحت أمي تزور غرفتي كثيراً. أو أذهب أنا إلى غرفتها. نتناول عشاءنا. نتكور في السرير، نصمت أحياناً، ونتبادل بعض الكلمات أحياناً. تبعنا الكلب من غرفة إلى أخرى، لا يريد أن يترك بمفرده.

قالت لي في إحدى الأمسيات: «ينبغي لي تعلم العيش بطريقة مختلفة. لقد اعتدت عليك».

- «وأنا كذلك». لدينا حياتنا البسيطة المعزولة. ثمة حياة أخرى في مكان ما، لكن نحن لدينا حياتنا.

في أغلب الأحيان، تترك أمي مصباحاً مضاءً في غرفتها طوال الليـل. أسـمعها، حـين لا أغفـو مباشرة، وهـي ذاهبة إلى المطبـخ لتحضير القهوة، وهي عائدة مرة أخرى. يتهيأ لي أحياناً أنها لاتنام أبداً. تبعثرت حول سريرها موسوعات وكتب أخرى. ومخططات لم أفهم معظمها. ميزت الأدوات الطبية في بعضها، وفروج نساء في بعضها الآخر. كانت مخيفة. لم أخبر والدتي عن أول فحص نسـائي لـي فـي المدرسة، كان مؤلماً ومثيراً للاشمئزاز. بالتأكيد فكرت حينها في أمي وفي عملها اليومي في المركز الصحي. لم أفهم، لمَ اختارت مثل هذا العمل؟ سخر مني صوت داخلي صغير، «خمني، خمني هذا السر البسيط». لكن اعتصار ذهني لم يوصلني إلى أي مكان.

لاحظت في إحدى الليالي أن أمي نائمة، وأن المصباح لا يزال مضاء في غرفتها. أخرجت أكواب القهوة، وجمعت قلوب التفاح وكسـرات الخـبز. كان التفاح وخبز الجاودار الأسود طعام أمي المفضـل. أطفـأت الضـوء. كـانت النافـذة نصف مفتوحـة. أبقتها كذلك؛ ليدخل بعض الهواء إلى الغرفة المشبعة بالدخان. تدفق هواء الليل المنعش. وألقى القمر نوره علينا.

كانت أمي نائمة على جنبها الأيسر ووجهها إلى النافذة. نائمة

بهدوء. جلست قبالتها على كرسي صغير. وجهها مثل وجهي مغطى بالنمش. يخف في فصل الشتاء إلى حد ما، لكنه يبقى ملحوظاً. جبهتها عالية تتكون عليها التجاعيد ببطء. اعتادت أن تضع يدها على جبهتي بين الحين والآخر وتقول: «لا تندهشي أبداً؛ ولا تعبسي». لكن، هي نفسها تعبس كثيراً. أنفها دقيق وضيق مع حدبة صغيرة. حواجبها ورموشها بنية داكنة، أذناها صغيرتان وملتصقتان برأسها، مع شحمتين صغيرتين. تفتح فمها بين الحين والآخر، وتشخر بهدوء -أحياناً- في أثناء نومها. بدا لي وجه أمي جميلاً. اختفى الخوف، القاطن الآخر في هذه الغرفة. لم يكن هناك سوى الصمت، وهواء الليل العليل، وضوء القمر، ووجه أمي.

جلست فترة وجيزة، ثم غادرت إلى سريري. نمت بمشقة. ودخلت مباشرة في حلم. كنت أقف بجانب خزانة ملابسي القديمة. من المفترض أن تظهرني المرآة البيضاوية الكبيرة بالكامل، لكنني لم أر سوى نصفي. يداي متصالبتان على صدري. بدا لي -في البداية- أنني أرى جدتي. لدي وجهها، عظامها البارزة، وأنفها المحدب، وعيونها الرمادية، وجبهتها العالية. ثم تغيرت الصورة في المرآة، ورأيت نفسي كأني أمي، عيناها مغلقتان، نائمة. ثم رأيت نفسي ببشرة متوهجة قليلاً، وكأنها مأخوذة من بطاقة تهنئة، لكن مع ذلك كنت أنا نفسي.

أحضرت كوباً كبيراً من القهوة إلى غرفة أمي كالعادة في الصباح. نهضت لتوها، وجلست أمام المرآة المكسورة بجانب طاولتها تمشط شعرها.

قلت لها: «أعطيني المشط، سأساعدك».

تمسد أمي شعرها، وتضفره، وتعقده بشريطة في أغلب الأحيان.

قلت: «ينبغي تسريحه مرة واحدة»، وبدأت في حلّ شعر أمي.

استسلمت، أشعلت سيجارة، ورشفت قهوتها.

حلمت حلماً جميلاً. رأيت نفسي فى المرآة، أولاً مثل أمك، ثم

مثلك، ثم مثلي. كنت في الحلم نائمة، وعيناك مغلقتين.

وضعت أمي سيجارتها وقهوتها على طاولة السرير. احتضنت يديّ، ووضعت وجهها فيهما. ثم قبلتهما، وكرّرت بهدوء: «كوني يقظة. أبقي عينيك مفتوحتين».

*

لم أرهما منذ عدة سنوات. سألتني ابنتي خلال عطلة الربيع، إن كان بإمكاننا الذهاب إلى ريغا معاً. من الواضح أن والدتي وزوجها اعتقدا أنني لم أعد أرغب في رؤيتهما. أرادا مناقشة عودة ابنتي إلى شقتهما. اجتمعت كل الأسباب للذهاب.

صادف أن كان الصباح الذي ذهبنا فيه للحاق بالقطار دافئاً ومشمساً، على الرغم من أننا لا نزال في شهر آذار/مارس. مشينا يداً بيد. شعرت كأن ابنتي تقودني كالعادة. كانت سعيدة جداً، تجري وكأنها ترقص تقريباً. سعيدة كسعادة ثلوج شهر آذار التي تذوب وتتدفق بعيداً. حتى الثلوج المتراكمة في مناطق الظل انحسرت. شعرت كما لو أنني أسير على طريق منسي بعد سنوات طويلة من الشتاء.

طقطقت نار باهتة في موقد الحطب في محطة القطار الصغيرة المهملة. غفت بومة ليل منهكة على أحد المقاعد. نقرت ابنتي على نافذة حجرة أمين الصندوق، فأزاح ستارة ثقيلة، وثقّب لنا تذكرتين.

قالت ابنتي: «تعالي يا ماما، ستحظين بشعور أفضل إن انتظرت القطار عند نهاية الرصيف».

انتظر قلة من الركاب قطار ريغا. توجهنا نحو نهاية الرصيف، وانضممت إلى طقوس ابنتي. عند نهاية الرصيف اختفت المسارات في المدى بين الحقول من جانب والغابة من جانب آخر. يفترض أن يظهر هناك في ضباب الصباح الربيعي القطار الذي سيقلني إلى المدينة التي نفيت منها بعد كل هذه السنوات. سيأخذني إلى أمي وزوج أمي اللذين آذيتهما كثيراً.

هدر القطار من بعيد. واقترب؛ ليبتعد بنا عن هذه الجلجلة.

كانت الرحلة طويلة. مرت المحطات الموحشة عبر النافذة، تلتها ممرات غابة رامبولا، حيث أطلق الرصاص على اليهود. استغرقت في حلم يقظة، عاد بي إلى حفلة طلابية أقيمت في إحدى حدائق رامبولا المجتمعية. بحثت عن مكان للجلوس بعد أن تجرعنا شرابنا القوي السيء. كانت الحديقة المخصصة محاطة بسياج مؤقت مدعم بأعمدة صغيرة بالنسبة إلى دورها، ومغطاة بالطحالب، ونقش صليب في أعلى كل عمود. سوف ينمو هنا الكثير من الملفوف والشمندر والبطاطا؛ لتُقدم إلى خنازيرنا السوفييتية؛ لأن جثث عمليات الإعدام العسكرية خصبت الأرض.

كانت الرحلة بطيئة. وصل القطار إلى محطة سكيروتافا التي رُحّل منها عشرات آلاف اللاتفيين إلى سيبيريا. لم يتغير شيء منذ ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه، أنا وابنتي، إلى بلدة المنفى البعيد. كان الناس يعيشون في العالم نفسه، وفي نفس المباني المتطابقة، وفي نفس الشقق المتطابقة التي تضم مجموعات متماثلة من الأواني الفخارية وطاولات القهوة، ومماسح الأرجل. كانوا نموذجيين؛ لأن في سكيروتافا التي تعني «مكان الانفصال»، في اللغة اللاتفية، لم يعد ينفصل أحد عن أحد. لا ينفصل الأزواج عن زوجاتهم، ولا الأطفال عن أهلهم، ولا الأجداد عن الأحفاد. توقفوا عن الانفصال؛ ليصبحوا عبيد القرن العشرين، لتخصيب أرض الوطن الشاسعة.

فكرت كذلك في والدي الذي انفصلنا عنه تماماً هنا.

كانت الرحلة طويلة. راقبت ابنتي ووجهها البناتي السعيد، وذقنها الملتصق بنافذة العربة.

نزلنا في محطة ريغا.

اقترحت ابنتي: «دعينا نمشي يا ماما. لا داعي لأن نركب الحافلة. الطقس جميل جداً، وأنت لم تأت إلى هنا منذ سنوات. ريغا جميلة».

أجل، جعلتها شمس آذار/ مارس جميلة، مع أن الشوارع مبللة، ومليئة بالطين والوحل الجليدي.

قررنا الجلوس على مقعد في حديقة فيرمانيس. أشعلت سيجارة. وأكلت ابنتي الآيس كريم.

بدا المارة وكأنهم متأنقون لمناسبة خاصة. كانت الألوان زاهية، والشمس مبهرة.

قالت ابنتي: «دعينا نواصل السير إلى شارع كيروفا».

قلت ضاحكة: «تزوج كيروف من إليزابيت». كان يسمى هذا الشارع «اليزابيث» سابقاً.

علقت ابنتي بسعادة: «حسناً ماما، من شارع إليزابيت إلى شارع فالديمارا المتزوجة من غوركي الآن. كيف أعيدت تسمية كل الشوارع!».

«ألست ذكية جداً بالنسبة لعمر الخمسة عشرة؟». أسعد فرحها قلبي.

ذهبنا إلى متجر شوكولاتة على الزاوية لشراء شيء لذيذ لنا. ثمة صفوف من تماثيل اللوزينا المرزبانية على الرف، تدعى «العزيز».

سألتني ابنتي بهدوء: «هل نستطيع شراء بومة اللوزينا؟».

- من الممكن اليوم شراء أي شيء. حتى بومة اللوزينا.

مشينا جنباً إلى جنب. سعادة ابنتي واضحة.

تزوج أمبتيمونوس بريدايتس من زوبي، وبقيت نيتور خادمة عجوز، وتزوج ميكيورينس من تومبسونو. عددت أسماء الشوارع وذكرت أسماءها «بعد الزواج»، والأسماء الجديدة، والأسماء الأصلية.

لم يتغير شيء في شارعنا القصير: المدرسة الفنية، ومكتبة المكفوفين، والمباني السكنية من زمن السلم على جانب، وروضة

الأطفال على الجانب الآخر.

رحبت بنا والدتي وزوجها في الشقة. تعانقنا، ورأيت الدموع تملأ عيونهم. ذهبت إلى غرفتي في أثناء تحضير الطاولة. كانت نظيفة ومشمسة، رتبت كتبي بعناية على أحد الرفوف، ووضعت على الطاولة مزهرية تضم أزهار الأقحوان، وكتب ابنتي وبعض التذكارات، وغطي السرير ببطانية أمي المطرزة ذات الشراشيب. سوف تسكن ابنتي قريباً هنا.

مر الغداء بهدوء. تحدثت ابنتي عن المدرسة وعن إنجازاتها في الكيمياء والأدب. ألقت والدتي وزوجها من حين لآخر نظرات حنونة نحوي. جلست على الطاولة المعدّة بشكل جميل. أحبوني جميعهم، لكنني لم أكن هناك.

خرجت لأتمشى بعد الغداء. مشواري المألوف إلى المستشفى. مرت سيارات الإسعاف بسرعة، ينقلون حياة شخص ما إلى بر الأمان. لينقذوه، ليبقوه على قيد الحياة في هذه المدينة، في هذا القفص. لأن الحياة تهم أكثر من أي شيء آخر.

قررت التوقف في منتصف الطريق، في الحديقة الصغيرة حيث اعتادت والدتي أن تأخذني إلى الأراجيح في طفولتي. لا تزال تمتزج روائح أزهار الجنجل والشوكولاتة من المصانع القريبة في الهواء.

كان الوقت ظهراً. المنتزه مليء بالثلج الذائب وخال من الناس. رفرفت على الممرات حمامات المدينة السمينة، وهذبت العصافير ريشها في الشمس. وما زالت الأراجيح القديمة هناك.

جلست على أرجوحة، ودفعت نفسي بعيداً عن الوحل الجليدي والطين. تأرجحت أعلى وأعلى. في الأعلى قبة السماء الزرقاء، وفي الأسفل ميناء الندم في الأرض. في الوسط، تأرجحت، وتنفست بشكل متقطع. تنفست من الثقب الصغير في الحقيبة، حيث خبأتني أمي؛ لتحميني.

لم تعد أمي في تلك الليلة. هاتفتنا من محطة القطار، وقالت إنها بخير. قررت ألّا تبات الليلة عندنا، وستعود إلى البيت. لاحظت كم آلم ذلك جديّ.

جهزت لي جدتي حماماً، كما جرت العادة خلال هذه الزيارات. منحني الجلوس في حمام دافئ، وسماع صوت التلفاز من غرفة جديّ شعوراً بالسلام.

لم يشغّلوا التلفاز في تلك الليلة. ساد صمت لفترة. استلقيت في الحمام، وغمرت نفسي بين الحين والآخر في الماء حتى لا أسمع الصمت الغريب.

تكلمت جدتي بعد فترة: «لقد خسرناها. ما الذي سيحدث لها؟ ماالذي سيحدث لها بحق السماء؟».

سمعت جدتي تبكي، وجدي يحاول تهدئتها.

- أهم شيء أن حبيبتنا بخير.

كررت جدتي بشكل متكسر: «على من يقع اللوم؟ لقد كبرت محاطة بالحب. كانت نوافذنا محطمة عندما عدنا من بابيتي، والجو بارد، ولم يكن لدينا شيء نأكله. قايضت معطفي الفرو الأفريقي بسكر الشمندر المجفف. آلمني فكّي من مضغ ذلك الشمندر، لم يكن هناك شيء آخر. لكنه وفر الحليب في ثدييي. رضعت حليب الأم حتى الثالثة من عمرها. كانت طفلة قوية وصحية. ما الذي جرى لها؟».

جلست في حوض الاستحمام، ووصل بكاء جدتي إلى مسمعي. فتحت الباب بعد فترة. هل تريدنني أن أفرك ظهرك يا حبيبتي؟ وعيناها ما زالتا حمراوين.

أخذت إسفنجة البحر البالية التي أحضرناها من الجنوب، وصوبنتها، وفركت ظهري برفق.

قالت بحنان: «مثل القيثارة، إنك تشبهين القيثارة».

لا أتذكر أن أمي فركت لي ظهري أبداً. ولم يكن لدينا حوض استحمام، كان أحد متع المدينة، مثلما هي لمسة يد جدتي على ظهري.

أخذت ألبوم الصور الأثير لدي معي إلى السرير. وضعت جدتي جميع الألبومات في الرف الأدنى من خزانة الكتب. ثمة ألبوم لأيام صبا زوج جدتي، وآخر لأيام صبا جدتي، وألبوم لنجوم السينما، وألبوم لأيام طفولة أمي ومراهقتها، كتب عليه بالحبر الأزرق: «عسى أن تزداد روحك نقاء كلما كبرت».

الألبوم هدية لأمي في عيد ميلادها الخامس عشر، مبطن بغلاف قماشي سميك. كان مفتاح حياة والدتي قبل أن آتي إلى الحياة: رقصت فيها، راقصة باليه صغيرة مع تنّورة بيضاء؛ فتاة بجديلتين تقف بجانب شجرة البتولا؛ فتاة في كومة قش؛ فتاة مُعفّرة بالتراب في حقل بطاطا؛ سبّاحة ينقّط الماء من شعرها، راقصة شعبية بذراعين ممدودتين تحت راية كُتبت عليها كلمات ستالين: «نحن من أجل السلام وحفظ السلام»؛ طالبة نموذجية ترتدي الزي الموحد مع شارة صليب الإسعافات الأولية على ذراعها الأيسر، شخصية تشارك في أحد المواكب، ترتدي منديلاً منشى، وتساعد زوج أمها في حمل العلم في عيد العمال.

ثم كبرت، صارت بعمري: شعرها قصير، وترتدي سروالاً ونظارة شمسية سوداء. وقفت بجانب نهر، وألقت بخيط صنارة، لكن القصبة كانت مخططة، وبدا الأمر كما لو أنها ترمي قوس قزح بالأبيض والأسود فوق النهر. ثم وقفت في أقصى القارب، وذراعاها مرفوعتان، كما لو أن العالم كله ينتمي إليها، بدت سعيدة سعادة شخص يستطيع أن يكون في هذا العالم. والآن، التعبير نفسه بعد أن تسلقت صخرة كبيرة، لكنها ارتدت الآن فستاناً وصل إلى ركبتيها، وحول رأسها شريطة عريضة ونظارة شمسية. ثم الصور الأخيرة في الألبوم. صوّرها شخص ما، عدة لقطات قرب أسلاك شائكة مع لافتة باللغتين الروسية واللاتفية تعني: «خطر، لا تتجاوز الأسلاك الشائكة». كانت الصورة تنبض بالحياة: شاطئ البحر الممتد بلا حدود، ورمال الشاطئ البيضاء،

وشعرها المتطاير في الهواء، وثوبها المطرّز.

*

هيأتني أيام عطلة الربيع ولياليها الطويلة لهذه الحياة الجديدة من دون ابنتي. حاولت أن أمضي أكبر وقت ممكن في المركز الصحي. استغلتني مريضاتي إلى الحد الأقصى، وأنا سمحت لهن بذلك. خلطت أسمائهن، ونسيتها، ضعت في فوضى تشخيصاتهن. طاردتني أعضاؤهن التناسلية كلما أغمضت عيني في الليل. تحول شغفي إلى روتين مزرٍ، إلى طريق مسدود. لم أعد أعيش مع آمال مريضاتي ومخاوفهن. تجاوبت معهن بلامبالاة حتى في حالات التشخيص السيئة جداً. أحلتهن ببساطة إلى مكان آخر. لكنهن عدن، لم يرغبن في رؤية أي طبيب آخر.

حتى جيسي التي حصلت الآن على وظيفة مستخدمة في المركز الصحي، قالت لي عندما تصادفنا في الممر: «يا للروعة! سأعمل هنا بالقرب منك».

ذكرتني جيسي صباح مساء بالقفص الذي أعيشه، وأعمل فيه. اكتشفت العديد من الصيغ الهرمونية التي قد تقود جيسي نحو الأنوثة. لكن كان من الواضح استحالة تطبيقها في الواقع الذي نعيش فيه، أنا وجيسي؛ فكل واحدة منا ملزمة بالاهتمام بأعبائها الخاصة: أنا بمريضاتي، وهي بأعمال التنظيف. الحرية في الخارج بالنسبة إلي، هي: أن أكون عالمة. وبالنسبة إلى جيسي: أن تكون امرأة، ولو جزئياً. أما في الوقت الحالي، فإننا نعتني بأقفاصنا.

وحيدة في الأمسيات من دون ابنتي، دعوت جيسي بعد يوم عمل طويل إلى المجيء معي إلى النهر؛ لنشرب هدايا مريضاتي.

لفظ النهر فوائضه الشتوية المتراكمة على ضفتيه كما في كل ربيع. بُعث من جديد، فتدفق هادئاً وعذباً، وتلألأت مياهه في السماء.

جلسنا على أحد المقاعد.

مضت أمسيتنا على النهر بصمت تقريباً، ما لم يقاطعنا طنين الأجنحة. حطت حمامة على جذع خشبة طافية في مكان قريب. طائر غريب، أخفضت رأسها، ورفعته وحدقت إلينا. لم تكن خائفة، ولم تطر بعيداً. الآن، أصبحنا ثلاثة.

*

طار الوقت -حرفياً- بعد عطلة الربيع. تمكنت في امتحان مادة الأدب من كتابة مواضيع، ليس لي فحسب، بل لصبي أعجبني أيضاً. مع أنه الولد الأقصر في المدرسة، لكنه الأكثر شغباً وجاذبية أيضاً؛ لأن وجهه ذكّرنا بنجم سينمائي أجنبي. سمح له والده بقيادة سيارته التشيجولي التي بلون القهوة، وكان معه مال دائماً، ضيفني ذات مرة موزة في المدرسة. كانت أول موزة آكلها في حياتي. بدا الأمر كما لو أنه يحبني.

اقترب موعد حفلة التخرج في المدرسة الابتدائية. تمكنت جدتي من العثور لي على بلوزة من الدانتيل الأبيض مع تنورة سوداء وحزام عريض وكشاكش، وحذاء بنفسجي من دون كعب، حتى لا أبدو أطول من الولد الذي أختاره عند الرقص.

استعادت أمي معنوياتها تقريباً. أخرجت لي ربطة عنق قرمزية صغيرة. ظننت أن ربطات العنق للصبيان فقط، لكن والدتي أكدت أن هذا سيجعل ملابس التخرج أنيقة للغاية، وكانت محقة. لم يضع أي من أصدقائي الصبيان والبنات ربطة عنق في حفل التخرج؛ فتحدث الجميع عن ذلك.

اشترت جدتي وزوجها الزهور والهدايا، وجلسا بجانب أمي في القاعة.

حصلتُ على أفضل نتيجة في المدرسة. كان هناك بعض الوقت بعد الحفل الرسمي، ريثما يحين وقت الرقص في المساء. دعت أمي جديّ للعودة إلى بيتنا. وهذه هي المرة الأولى التي يزورانا فيها.

تجول جدي في الحديقة، تبعه الكلب في كل خطوة؛ لأنه لم يعتد

إلا على النساء. وأخذتُ جدتي إلى غرفتي. جلست إلى طاولتي، ونظرت من النافذة. رأيت الدموع تملأ عينيها مرة أخرى.

- أرجوك توقفي! اليوم احتفال. وسآتي للإقامة معك في الخريف.

وضعت أمي طاولة في الحديقة مع بعض المرطبات البسيطة. لا تزال أشجار التفاح مزهرة، وتساقطت الأزهار البيضاء على الطاولة وفي عصير الليمون.

قالت والدتي: «لم تكن حياتنا سيئة هنا، سنرى كيف سأعيش وحدي».

التزمت جدتي وزوجها الصمت. صحت أنا: «ما كلّ هذه الخطب الجنائزية!». وقبّلتهم الواحد تلو الآخر. إنه فصل الربيع. ربما كنت في حالة حب، وأعلق آمالاً كبيرة على رقصة المساء.

تسللت إلي، وأنا في خضم سعادتي، الكلمات المكتوبة على ألبوم صور والدتي: «عسى أن تزداد روحك نقاءً كلما كبرتِ».

نظرت إلينا والدتي نظرة ملأها الحزن، إلى درجة شعرت معها بالخزي من فرحي العارم.

قالت لجدتي وزوجها: «ربما حان الوقت للذهاب إلى محطة القطار. رافقيهما أنت أيضاً. وعليك بعد ذلك الذهاب مباشرة إلى حفلة الرقص».

انفجرت في البكاء ونحن في الطريق إلى محطة القطار. لماذا تجعل كل شيء كئيباً دائماً؟ كيف يستطيع المرء الاستمرار مع انعدام الرغبة في العيش؟ حتى في يوم تخرجي لا تريد ذلك، وربما لم ترغب في العيش حتى في اليوم الذي ولدت فيه أيضاً. قلت لجدتي وزوجها اللذين سارا صامتين بجانبي: «لقد أنقذتماها من مخالب الموت. كيف يمكنها أن تجازيكما بهذه الطريقة؟». توقف زوج جدتي بين الحين والآخر، لالتقاط أنفاسه، وحملت جدتي حقيبته.

تعانقنا في المحطة.

قلت لهما كما لو أنني طفلة: «لن تموتا، أليس كذلك؟».

- لن نموت يا حبيبتي، لن نموت.

لم أرغب في رؤية والدتي في ذلك المساء مرة أخرى. مشيت حتى النهر، وعدت مرة أخرى إلى قاعة التجمع المضاءة بأنوار خافتة، حيث بدأ الرقص.

شعرت أنه سيطلب مني أن أراقصه رقصة سلو. انبعثت من مكبرات الصوت أغنية «اتصلت لأقول أحبك فقط»، واتجه الصبي الأكثر شغباً وجاذبية في المدرسة نحوي مباشرة عبر القاعة. في البداية، رقصنا متباعدين قليلاً عن بعضنا بعضاً، ثم وضعت يدي على كتفيه، ووضع يديه حول خصري مرتبكاً إلى حد ما. لكن عندما اقتربنا من بعضنا بعضاً شعرنا بشعور رائع. حاولت ألا أكون أطول منه. لمس رقبتي بأنفه، وتلاشت أرضية القاعة الخشبية تحت قدمي.

مشينا إلى النهر في الليلة الحزيرانية الحارة. جمع حجارة صغيرة مسطحة، وقذف بها فوق الماء. لامست الحجارة سطح الماء عدة مرات، ارتفعت مسافة قصيرة، ثم غاصت.

قبلني عند منزلنا، أولاً على الخد، ثم ضغط شفتيه على شفتي اللتين اعتصرتهما معاً بقوة. كانت تلك قبلتي الأولى.

فتحت الباب الأمامي بحذر حتى لا أوقظ أمي. كان بابها مفتوحاً وغرفتها خالية. رأيت سيجارتها من خلال النافذة المفتوحة تتوهج ضعيفة في الحديقة. جلست بجانب طاولتنا الاحتفالية التي لا تزال محملة بالصحون وكؤوس عصير الليمون.

سألتها وأنا أخرج إلى الحديقة: «لماذا تجلسين وحيدة هنا في الظلام يا ماما؟».

همست: «أنا خائفة يا طفلتي، خائفة».

لم تنادني بهذه الطريقة أبداً، كما لم تتحدث قط عن الخوف.

تبدّد غضبي معها في الليلة الدافئة. عانقت أمي بقوة. قلت لها: «لا تخافي يا ماما. كل ما تحتاجين إليه هو الرغبة في الحياة يا ماما. الرغبة في أن تعيشي، وكل شيء سيكون على ما يرام. أنا أحبك يا ماما».

*

كان صيفاً لاهباً. قررت ابنتي البقاء معي حتى منتصف آب/أغسطس على الرغم من أن والدتي وزوجها دعواها للذهاب معهما إلى شاطئ البحر مدة شهر. بدا أن كل شيء في هذا الصيف يساهم في وداعنا. مات كلبنا، ربما بسبب أكله سم الفئران. دفنّاه بجانب بامبي.

تفاديت الذهاب إلى غرفة ابنتي، حيث يحزم كل شيء بالتدريج تحضيراً لرحيلها. ثمة تقويم يومي على مكتبها، قلبت فيه صفحات صيف 1984 صفحة صفحة.

أصبحت جيسي زائرة معتادة. جاءت للمساعدة، والترتيب، وإعداد هذا وذاك. أغلق المركز الصحي مدة شهر؛ لذلك مررت لي جيسي، التي عملت بدوام جزئي في أرشيف الكتب في الكنيسة، بعض الأشياء للقراءة، لتقصير لياليّ الطويلة المؤرقة.

حدثتني جيسي أيضاً عن الكتب التي مزّقت أغلفتها لحجب عناوينها وأسماء كتابها، وقُطّعت إلى قطع صغيرة لتلتهمها قطّاعة الورق. وعن الكتب التي تكدّس في شاحنات، وتنقل إلى المجهول.

أحضرت لي جيسي في إحدى الأمسيات جزءاً من كتاب لفت انتباهها بسبب ورقه ونوعه المميزين. كان باللغة اللاتفية، لكنه لا يشبه المنتجات الورقية القاتمة في دور نشرنا.

قالت جيسي فخورة بلقيتها: «جزء من كتاب هو كتاب أيضاً».

قلبت الصفحات عشوائياً. ثم وقع نظري على حوار أثار في قشعريرة.

- هل تؤمن بالله، يا وينستون؟

- لا.

- ما هو هذا المبدأ الذي سيهزمنا إذاً؟

- لا أدري، روح الإنسان.

من هو هذا الوينستون الذي سُئل عن الله مثلما سُئلت تماماً في شارع إنجلز قبل الذهاب إلى لينينغراد؟

تابعت القراءة. تردّد صدى الحوار كلّه، كما لو أن المتحدّث واقف بجواري تماماً، في غرفتي الضيقة، كما لو أنه يصف حياتي الآن.

*

كنا سنحظى بصيف أخير رائع معاً، لو لم تأتنا جيسي بجزء الكتاب هذا. التهمته أمي، وعددنا -أنا وجيسي- الأيام حتى يفتح المركز الصحي. ندمت جيسي على هذه اللقية من أعماق قلبها. حتى إننا فكرنا في سرقة الكتاب من أمي، لكن لا يمكن التنبؤ بالعواقب. لم تتحدث أمي في الأمسيات الصيفية الجميلة العليلة في الحديقة إلا عن «كتاب البوح» الذي أنقذته جيسي من الأرشفة.

بدأت أخرج في الأمسية، وأترك أمي مع جيسي. جلست جيسي إلى جانبها بمنتهى الإخلاص في الحديقة، واستمعت إلى خطب مسهبة لا نهاية لها حول وينستون، هذا الغريب الجديد الذي طغى على إسماعيل تماماً.

بدأت تتلف صفحات نصف الكتاب هذا مع التقليب المتكرر والمراجعة. وفي بحثها عن ورق مقوى، أخذت أمي مفكرتنا، ولفت بها الكتاب في النهاية. شطبت الكتابة المكتوبة عليها باللون الأحمر، «سنة 1984»، وكتبت بالحبر الأسود: «صيف 1984».

كرهت نصف الكتاب هذا الملفوف بالمفكرة. لقد سرق صيفي الأخير مع أمي، وأدخلها في عالم الخيال أكثر، أبعدها عن الحياة،

وعن الحديقة المزهرة والنهر المنعش.

*

طفت كما لو أنني مغلفة بالضباب في فترة رحيل ابنتي. التحمت حياتي اليومية مع كتاب جيسي. ولم أعد أشعر بأن حياتي لي. مرّ شهر تموز/يوليو ونصف شهر آب/ أغسطس بسرعة خيالية. أخذت جيسي الكتاب في النهاية، وأخفته في مكان ما. لم تعد قادرة على رؤيتي، وأنا أفسد أيامي الأخيرة مع ابنتي. أعجبت بابنتي. لم تبدِ خيبة أملها، وتحملت غيابي الغريب بكل صبر، وهي تحزم الأشياء التي ستأخذها إلى ريغا بدقة. عثرت على وظيفة بدوام جزئي في مكتب البريد للحصول على مصروفها، لم تحضر إلى المنزل في الأمسيات، لكنها لم تعد أبداً بعد منتصف الليل. ربما كانت تعيش حالة حب؟ لا وقت لها؛ لتخبرني عنه. وجدت جيسي أن هذا هو الأشد إيلاماً. قالت لي في اليوم الذي أخذت فيه الكتاب مني: إنني أتصرف مثل والدتها التي تركتها في دار الأيتام مع ملاحظة، «لا أريد هذه الهدية».

قالت جيسي: «هل تدركين أنها لن تكون معك أبداً كما هي الآن؟ سوف تنتقل إلى حياتها الخاصة. إنها فتاة ذكية ولطيفة، إنها نعمة. ما هذه الشياطين التي تتملكك». قالتها كما لو أنها تلقي موعظة.

شياطيني! لقد حاولت أن أتحدث عنهم مع سيرافيما، لكنها لم تصدقني. أو رفضت تصديقي. لكن جيسي رأتهم فيّ.

- ماما، لن آخذ لباس مدرستي القديمة. سأتركه في خزانة الملابس.

كنا نخيط لباساً مدرسياً جديداً: تنورة، وبلوزة مخططة، وسترة. وابنتي مشغولة بمطاردة شياطيني.

- لن آخذ حقيبتي المدرسية كذلك، إنها بالية من الداخل. ولا حذاء التزلج؛ إنه يضغط على قدمي. وسأترك القصص الخيالية إن وافقت؛ لأنه لن يتوفر لي الوقت لقراءتها. سأضع طوق الكلب

في درج خزانة الملابس السفلي؛ فقد تحصلين على كلب آخر. ولا تنسي أن تسقي صبّار عيد الميلاد بين الحين والآخر. وأرجوك، لا تكثري الماء للنبتة الخضراء الصغيرة ذات الأزهار النجمية التي تشبه جلد الثعبان. ماما، ما رأيك أن أقص غرتي؟ أو أن أقص شعري قصة قصيرة؟ هل تعلمين، سأترك وشاح رقبتي، لا فائدة من أخذه معي. وهنا بعض الأشياء الصغيرة: حجارة، وكستناء، ونباتات مجففة. لن تزعجك، أليس كذلك؟

- لا، لن تزعجني، يا طفلتي. سأكون بخير معها في قفصي. سأنفض الغبار عنها كل يومين، وأقوم بتهوية الغرفة، وأسقي الأزهار. العبودية حرية ياطفلتي. سأكون بخير هنا، وبانتظارك.

العبودية حرية. تعلمت ذلك من كتابي. في الليلة السابقة لرحيل ابنتي جلسنا في الحديقة مطولاً. كانت ليلة آبية رطبة ودافئة. سألتني ابنتي، هل يتذكر أي طفل مذاق حليب أمه؟

- أعتقد أنهم لا يستطيعون. لا يستطيع الإنسان الاحتفاظ بذكريات مبكرة إلى هذا الحد.

جلسنا بصمت.

*

عدت إلى ريغا وإلى جديّ. نسيتُ أمي لفترة أثناء دوامة البدء في مدرستي الثانوية الجديدة. نمت غالباً على الكرسي القابل للسحب في غرفة جدتي وزوجها على الرغم من أن لدي غرفة فسيحة. أردنا أن نكون معاً بقدر ما نستطيع.

كانت المدرسة الجديدة ضخمة ومعقدة. وقعت بعض الصفوف في المبنى القديم، وبعضها في المبنى الجديد. اتصل المبنيان بعضهما ببعض بممر زجاجي طويل ومليء بمتاهات من الممرات الصغيرة والكبيرة، ينبغي للمرء المرور بها كل يوم. كان عدد الطلاب الجدد قليلاً في الفصل. حافظ زملاء الصف على مسافة بين بعضهم بعضاً، كما حافظ المعلمون على مسافة بينهم وبين الطلاب. جلست المديرة في مكتبها وحدها. الاقتراب منها ممنوع

66%

منعاً باتاً. كل شيء مناقض تماماً لتجربتي في مدرستنا الريفية الصغيرة. اشتقت إلى حد ما، في تلك الأسابيع الأولى من شهر أيلـول/ سـبتمبر، إلـى حقـول الشـمندر والـجزر المـاطرة، وإلـى الصباحات الباكرة عندما اعتدنا الجلوس جميعاً قرب أكوام من السيقان والأوراق الخضراء، وإلى الحساء الدافئ الذي أحضروه لنا في الحقول.

كل شيء مختلف هنا: معقم، ونظيف، ومضاء على نحو فجّ عبر أضواء سقفية فاقعة. كان الجميع يتنافسون في مدرسة المدينة هـذه؛ لـيكونوا الأفضـل. وشـجعت المديرة، المرأة الضخمة ذات الشعر الرمادي وظل الشارب، كل هذا. تجمد الجميع عندما ظهرت فـي الممـرات، حتـى معلمـة الرياضـة التـي توازيـها فـي الحجـم الشكلي على الأقل.

اسـتبدلت رومانسـية العمـل فـي حقـول الشـمندر بعمـل تنظـيف المدرسة مرتين أسبوعياً. انتهت الحصص الدراسية باكراً في أيام التنظيف. وجب علينا مسح الأرضيات والمشعات لتدارك ما نسيه عمال النظافة.

جاءت المديرة عند انتهاء العمل، وهي ترتدي قفازاً أبيض كبيراً بيدها اليمنى؛ لتتفقد المناطق التي قمنا بتنظيفها. ظهرت بالطبع بقع رمادية -وحتى سوداء- على القفاز الأبيض في بعض الأحيان، تبـع ذلـك محاضـرة فـي القاعـة الكبـرى. يتحمـل جمـيع الطـلاب السوفييت مسؤولية إنجاز العمل بأمانة. يجب أن تكون ضمائر كل الشيوعيين الشباب بيضاء مثل قفازها قبل أن تلطخه بقع العمل الرديء لأحدهم.

بدأ ضميري يخزني من أجل بامبي، في أثناء هذه المحاضرات، فـي القاعـة المزدحمـة ذات السـقف الواطـئ. فـهمت الهامسـتر المسكين فجأة. التمست غفرانه روحياً. والأكثر من ذلك، تذكرت وأنا انتظر التحرر من القاعة الخانقة وصوت المديرة الحاد، كيف تعاطفت أمي مع بامبي، وكيف أكلت الفطر دون أن تعرف إن كان سليماً أو مميتاً.

بدأت أسأل جدتي وزوجها عن حياتهما. هل كانت الأمور دائماً كما هي الآن، وكما أخبرنا عنها المذيعون على شاشة التلفاز كل مساء؟

قال جدي: لا ينبغي للمرء التفكير في الماضي. لن يتغير شيء هنا. وسوف يبقى الحذاء الروسي ها هنا إلى الأبد. وأضاف أن الأهم من ذلك، وحباً بالله، يجب ألّا أتحدث عن أي شيء من هذا القبيل في المدرسة. حتى مع أولئك الذين أعتبرهم أصدقائي.

لكنني لم أتوقف. أخبرت جديّ عن الوقت الذي ثملت فيه والدتي بعد جنازة بريجينيف، وعن الأقحوان الأبيض والأحمر على طاولتها، وعن كل ما قالته عن لاتفيا.

حدق إلي جديّ بذعر، ثم شرعا في البكاء. أحضر جدي ألبوم الصور من مجموعة الألبومات في غرفتي.

قال: «ستصبحين فتاة ناضجة في هذا الخريف، لكن ينبغي أن تفهمي، أن هذا يجب أن يبقى داخل بيتنا؛ لأنه لن يتغير شيء هنا، لا شيء على الإطلاق».

أضافت جدتي: «عليك التعايش مع الأمور كما هي يا حبيبتي».

لكن ألبوم زوج جدتي أشبه بحكاية خرافية. حكاية لاتفيا قبل أن أولد، وحتى قبل أن تولد أمي. ارتدى فيها زوج جدتي لباساً رسمياً جميلاً، وحذاء طويلاً وصل إلى الركبة، وحمل علماً عند تمثال الحرية. شوشت الصورة البنية الداكنة الألوان، وضح زوج جدتي: «خطان أحمران وخط أبيض. كان لدينا دولة وعلم».

ملأت الدموع عينيّ أيضاً الآن؛ لأن أمي قالت نفس الشيء. بدا لي حينها أنه لا يتعدى كوابيسها الكئيبة، لكن تبين أنه الحقيقة الآن.

كيف نتعامل مع الحقيقة؟ تضمن جدول الحصص الدراسية ست حصص للغة والأدب الروسيين أسبوعياً. ووجب علينا دراسة وثائق مؤتمر الحزب الشيوعي، التي كررت العبارات الفارغة

نفسها مراراً وتكراراً. ولا بد من حفظ كل هذه العبارات الفارغة، ثم سردها عن ظهر قلب.

قسمت حياتي إلى عوالم متوازية: أُحضّر واجباتي المدرسية لليوم التالي بعد انتهاء الدوام المدرسي، وأستمع في المساء إلى قصص جديّ. إنهما يعرفان الكثير.

حصلت على علامات ممتازة في المدرسة الجديدة لغاية عطلة الخريف الأولى. لم يتفوق عليّ سوى عبقري مدرستنا: نابغة في الرياضيات، وطالب بمرتبة الشرف، ولا أحد يستطيع منافسته. أعجبت بذهنه المتقد. وثقت به تماماً في الواقع، إلى درجة وددت فيها أن أشاركه قصص عوالمي المتوازية. أردت التحدث عن لاتفيانا التي ازدراها الاتحاد السوفييتي وألمانيا، وعن اللاجئين، وعن عمليات الإعدام والترحيل إلى سيبيريا، وعن الذين بقوا وسكتوا. أما نحن، الجيل الثالث، فتم إسكاتنا منذ البداية. أردت التحدث عن والدتي التي عاشت في مكان معزول في البلد؛ لأنها لم تستطع أن تعيش حياتين، ولم تتقبل حياة الازدراء، كما ازدريت لاتفيا. أردت مشاركته كل هذا، لكنني لم أفعل. أطعت زوج جدتي الذي يعرف ما يقول.

ذهبت إلى أمي في عطلة الخريف. التقتني جيسي في محطة القطار، وظهرت على وجهها علامات قلق واضحة. لم أر أمي منذ ثلاثة أشهر تقريباً.

قالت جيسي وهي تسير بجانبي: «إنه وادي الدموع. تذهب الآن إلى المركز الصحي مرتين فقط في الأسبوع، وتدمر نفسها ببطء بقية الوقت. أحاول أقصى ما أستطيع، لكن لا شيء ينجح. أنظف المنزل، لكنها لا تسمح لي بالدخول إلى غرفتها. جيد أنك أتيت».

كانت أمي مستلقية على السرير في رداء حمام سميك. تناثرت حولها الكتب، ومنافض السجائر، وتفاح نصف مأكول. أثقلت طاولة السرير الجانبية الصغيرة بأكواب القهوة، وتبعثرت تحتها علب دواء نصف فارغة.

ابتسمت قليلاً عندما دخلت.

قالت وهي تشعل سيجارة: «جئت إذاً يا بنة المدينة».

فتحت النافذة؛ لأن جو الغرفة فاسد.

- انظري ماذا أحضرت يا ماما: كمثرى، وكاكي، وكستناء صالحة للأكل. هل تذكرين؟ السوق المركزي مليء بها الآن، ولم تعد باهظة الثمن.

لمست والدتي الكمثرى الصفراء وحبة الكاكي نارية اللون.

قالت وهي تستنشق بفتور: «لعل رائحتها فواحة، لكني لا أستطيع شمها».

قلت لها: «سأبقى معك مدة أسبوع كامل. انهضي. علينا تنظيف هذه الغرفة».

استسلمت أمي كطفلة. جلست في المطبخ فيما رتبت أنا غرفتها. سخنت حوضاً كبيراً من الماء في المساء، وساعدتها في الاغتسال، وفركت لها ظهرها. ومشطت لها شعرها المتشابك، وقصصت أظافر يديها وقدميها.

قالت: «أستجمع قواي مرتين في الأسبوع. قواي خائرة للغاية. لا أريد شيئاً. ترتب جيسي هذا وذاك»

غيرت مسار أفكار أمي: «هل بإمكانك صنع كعكة تفاح غداً أو بعد غد؟ يجب أن نحتفل بأعياد ميلادنا».

نبضت أمي بالحياة نوعاً ما خلال الأيام التي بقيت معها فيها. أصغت إلي باهتمام وأنا أتحدث عن مدرستي الجديدة، وعن حكاياتنا المسائية، وعن العبقري الذي أردت مشاركته بعض القصص، لكنني امتنعت.

- لم أكن أقتنع بما تقولينه عن لاتفيا يا ماما. وعرفت الآن أنك على حق.

قالت أمي: «أنت ذكية».

دعونا جيسي لحضور أعياد ميلادنا ومشاركتنا كعكة التفاح. حضرت بأفضل ملابسها، وجعّدت شعرها بشكل جميل.

وضعت جيسي على طاولتنا الاحتفالية صندوقاً صغيراً، وهو الهدية الوحيدة التي قدمتها لها أمها الراعية في دار الأيتام. أرادت منحها لنا.

قالت لي جيسي: «افتحي الصندوق».

فتحته. كان في داخله: خاتم ذهبي، وبعض الشموع، وغصين مجفف.

قلت لها: «ألا تشعرين بالأسف للتخلي عنها يا جيسي؟ فهي هديتك بعد كل شيء».

قالت جيسي وهي تضحك: «وُهبتها مجاناً. وأهبها مجاناً».

جلسنا نتحدث حتى وقت متأخر من الليل. راقبت والدتي، وهي تعود إلى الحياة. كانت جيسي سعيدة هنا معنا.

*

- هذا ما سيكون عليه الوضع إلى الأبد الآن. سوف تأتي في أثناء العطل المدرسية، وأحياناً في عطلة نهاية الأسبوع. وأحياناً لن تأتي عندما تنشغل بالمدرسة. وستأتي أقل بكثير عندما تقع في الحب. هكذا سيكون الوضع الآن ياجيسي.

- إنك في السرير منذ ثلاثة أيام. ارتدي ثيابك. دعينا نذهب في نزهة. لم تفقد جيسي الأمل أبداً في أنني سأتمكن من الخروج من جحري.

تمتمت جيسي، وهي تجمع أكواب القهوة ومنافض السجائر: «لقد أبعدتك السجائر والكتب عن الحياة الحقيقية. وهذه الحبوب اللعينة أيضاً».

قلت: «إنها تسهل الأمر عليّ، ولو للحظة يا جيسي، فأنا في عالم آخر».

سألت جيسي: «وما هو الخطأ في هذا العالم؟ قولي لي، ما الخطب فيه؟ تشرق الشمس في الصباح، وتغيب في المساء، وتمر الأيام بسلام، ولا نعاني من أمراض خطيرة، ولا نتضور جوعاً، ولدينا منازلنا».

- أكاد أصدقك عندما تتحدثين بهذا الشكل يا جيسي.

تابعت جيسي: «اعترفي، اعترفي بهذه الحقيقة، وستكونين حرة بعد ذلك مرة واحدة».

لكن يا جيسي، لم أكن أبداً عبدة لها: السجائر، والكتب، والحبوب.

- حقاً! ألست كذلك؟

- لست كذلك يا جيسي؛ ولهذا أشعر بالحرية.

غادرت جيسي غرفتي وهي مستاءة قليلاً. سمعت قعقعة الأطباق وهي تغسلها في المطبخ.

أرغمت نفسي على ارتداء ملابسي، وخرجنا في نزهة. كان شهر تشرين الثاني/ نوفمبر هادئاً، هدوء من النوع الذي يثير حنيناً إلى الماضي. مشينا بصمت على طول النهر باتجاه حقول الكولخوز. انبسطت المروج خلفها. قلّما يذهب أحد إلى هناك الآن، ربما يذهبون في الصيف فقط لجمع الأعشاب من أجل الشاي أو لجمع الأزهار البرية. لكن، أنا وجيسي أحببنا المكان. امتدت المروج حتى ضفة النهر المعشوشبة، حيث تأثرت نباتات البردي البنية المحمرة بموجة الصقيع الأولى.

قالت جيسي: «انظري، لم تتحول إلى زغب، تجمدت فقط».

قلت وأنا أنظر إليها، وهي تلمس سنبلات البردي: «ماذا عساي أن أفعل يا جيسي؟ روحي حزينة حد الموت. إنها متجمدة».

كانت جيسي صامتة، والنهر أمامنا صامت، والسماء الملبدة

صامتة.

عدنا إلى المنزل على طول الطريق بمحاذاة النهر. مشت جيسي أمامي، وتبعتُ خطاها. ثم توقفت فجأة، واستدارت.

قالت جيسي: «تماسكي بالله عليك». وبدأت تخبرني عن الميتم، حيث ربطها الأولاد إلى أحد الأعمدة، عمود خشن مليء بالشظايا. ربطوها شبه عارية، بقميصها الداخلي المهلهل. أجبروها أن تقول: «يا ليتني لم أولد!». ظلت جيسي صامتة؛ صامتة كما لو أن فمها مليء بالماء. لكنهم صرخوا، قوليها أيتها الشاذة، قولي: «يا ليتني لم أولد». لكن جيسي التزمت الصمت، كما لو أن فمها مليء بالماء. بعد ذلك رماها الصبيان بالحجارة. ضربوا ساقيها ووجهها وذراعيها. واستمروا في الصراخ: «قوليها، قوليها»، «يا ليتني لم أولد». لكنها لم تقلها إطلاقاً في حياتها. عانت في صمت، ثم فقدت الوعي.

استدارت جيسي عندما أنهت كلامها، وتابعت طريقها. وواصلت أنا السير على خطاها.

*

بقيت قلقة على أمي عندما عدت إلى ريغا بعد قضاء عطلة الخريف المدرسية معها. أراحني وجود جيسي معها. لم أرغب في إثارة قلق جديّ؛ فأخبرتهما أن كل شيء جيد إلى حد ما، وأن أمي تعمل الآن بدرجة أقل، وتستريح أكثر، وهذا ما تستحقه منذ زمن طويل. أخبرتهما أننا حظينا بأوقات رائعة: لقد صنعنا كعكة التفاح، واحتفلنا بأعياد ميلادنا، وشوينا بطاطا على الفحم في موقد الحطب، وتنفست هواء الريف النقي، ومضت الأيام بلمح البصر.

أنا الآن في الفصل الثاني، في المدرسة. لا يمكن أن أدع علاماتي تتدنى بعد أن أنهيت الفصل الأول بشكل جيد جداً. بدأ العبقري ينتبه إلي، وكان ذلك شرفاً عظيماً. منهاجنا المدرسي كثيف جداً، وأضيف إليه التدريب العسكري. وجب علينا جميعاً الاستلقاء على بطوننا على فرشة الرياضة كريهة الرائحة في المدرسة

وفتح أرجلنا على اتساعها (الأمر الذي استمتع به الصبيان بلا حدود؛ لأن الفتيات لم يكن يسمح لهن بارتداء السراويل)، ثم تصويب البندقية على هدف، وضغط الزناد عندما يصيح المدرب «أطلق النار!». يحظى أي طالب لم يتمكن من اتباع تعليماته بعبارة المدرب المفضلة: «بحق الصداقة، افعلها مرتين».

ثبطتنا قسوته جميعاً. كان سريعاً في توزيع علامة الصفر- أدنى درجة في التقرير المدرسي- الأمر الذي بإمكانه تحطيم أعلى معدل. وجب علينا بعد تمرين الرماية ارتداء أقنعة الغاز التي لا تنزع إلا بأمر المدرب. أغمي على إحدى الصديقات؛ فاتضح أن صمام قناعها كان مغلقاً. كادت أن تختنق، وهي تنتظر الأمر.

كرهت ذلك المدرب القصير السمين. أصبح في مخيلتي المتهم في عيش العوالم الموازية لهذا العبث السوفييتي. ثم اخترق يأسي بصيص نور. أُعلن عن تقديم طلبات للانضمام إلى مجموعة التاريخ الثقافية في لوحة إعلانات المدرسة. ستكون اللقاءات خارج أوقات الدروس. تقدمت بالطلب طبعاً.

حضر لقاء المجموعة الأول ثلاثة طلاب: أنا، والعبقري، وفتاة أخرى. قدمونا إلى المعلم «بلمز» الذي بدا وكأنه جاء من عالم آخر. جبهته عالية، وشعره كثيف وطويل، ولحيته كثة. لم يبد كمعلم حتى. تكلم بصوت هادئ، وما تحدث عنه مختلف تماماً.

بدأنا بالشعر. تعلمنا في هذه اللقاءات ما افتقدته المناهج المدرسية. كان نصنا الشعري الأول قصيدة بعنوان «الشاطئ يتحدث» لشاعر أكبر منا بعشر سنوات فقط. قرأها المعلم بلمز، وجلسنا ثلاثتنا مسحورين. كنا نلهث منذ لحظة في أقنعة الغاز في انتظار الأوامر. والآن، وقفنا على شاطئ البحر، حيث علت الأمواج وهبطت.

ازدهر عالمي الموازي الجديد بسرعة البرق مع المعلم بلمز. وجدت في مكتبة شارع غوركي أول كتاب منشور للشاعر. كان أصغر من أصغر كتاب ممكن ومهترئ. وضعته في صندوقي وخرجت من المكتبة. قرأته من أول قصيدة حتى آخر قصيدة، ومن آخر

قصيدة إلى أول قصيدة مرة أخرى.

*

بدا أن مديرة المركز الصحي تنظر إلي بعين الريبة الآن. علقت عدة مرات على مظهري المهمل، الذي لا يليق بطبيب يعاين مرضى، بحسب رأيها. خُفّض حجم عملي إلى الحد الأدنى، لكن الممر اكتظ إلى الأقصى في مواعيد استشارتي؛ لذلك تحمّلت المديرة وجودي، على الأقل في الوقت الراهن.

وقعت مرة أخرى تحت سحر وينستون. بذلت جيسي جهداً كبيراً لإخفاء الكتاب، لكنني وجدته. لاحقني وينستون في كل مكان، مثل الظل الذي يمشي أمامي كلما سقط ضوء الشمس على ظهري، كما لو أنه يقلد كل خطوة أقوم بها. رافقني من المركز الصحي وإليه. وقف خلفي في غرفة المعاينة، وبدون خجل، لم يغض الطرف حتى عندما خلعت المريضات ملابسهن. آراه في الأمسيات يتسلل بالقرب من نافذتي. أصبح في حلمي الرجل في قصة جدتي، ذاك الذي نام في الحفرة، وهو مغطى بلوح نافذة الكنيسة الزجاجي. حمى وجهه، حماه من رؤية المستقبل، حيث سحق الحذاء وجه الإنسانية. لقد حُذّر للقيام بذلك. وأخبرني وينستون بحزم؛ لأقوم بالشيء نفسه الآن.

حاولت جيسي المسكينة جاهدة فكّي من سحره. جاءت باكراً في أيام عطلتي. شجعتني على الخروج إلى الحديقة أو إلى المشي. أجبرتني على المشاركة في صنع وجبات الغداء. اشترت مرة سمكة شبوط حية من أحد الجيران، إنه ملك سمك الشبوط نفسه، ضخم وله شارب. جميل للغاية إلى درجة أننا قررنا إطالة حياته. وضعناه في حوض معدني مليء بمياه الأمطار. جلست بجانب الحوض، ونظرت إلى السمكة الكبيرة وهي تدور. حذّرتني جيسي من التعلق بها؛ لأن نهايتها آتية لا محالة. لكنني جلست ومخضت الماء بين الحين والآخر حتى يحصل الملك على ما يكفي من الأكسجين للتنفس. فتح فمه وأغلقه امتناناً، وهفّ جانبيه الذهبيين المنعكسين في الحوض.

قلت: «لكن، كيف لنا أن نقتله يا جيسي؟ انظري إلى جماله».

قالت جيسي: «بسكين كبيرة. أنت تحملينه، وأنا أضربه على رأسه بمقبض السكين، ثم أنحره عند الخياشيم، ونشويه على الفحم في موقد الحطب».

- جيسي، ألا تسمعيني. كيف لنا أن نقتل كل هذا الجمال؟

أصرت جيسي، وهي تربط مريلة حول خصرها، وتسلح نفسها بسكين كبيرة: «من الأفضل أن تأتي وتمسكي هذا؛ سيوفر لنا طعام العشاء لعدة أيام».

لم يكن الأمر سهلاً. قاوم الملك، وتملّص منا مثل الشيطان نفسه. صفعنا بذيله، وقفز في الهواء. كانت معركة صعبة. لكن يدي جيسي الكبيرتين قويتان. قُطع الرأس، لكن الملك ظل يتحرك. تطايرت الحراشف المتطابقة تحت سكين جيسي الحادة في كل الاتجاهات.

كانت وجبتنا المسائية لذيذة، ذاب الملك في أفواهنا.

قالت جيسي: «أؤكد لك، أنني سأذهب إلى صيد الأسماك بنفسي. ثمة الكثير من الأسماك في النهر».

قلت لجيسي بامتنان: «سأذهب معك». اختفى ظل وينستون في الوقت الراهن على الأقل.

*

ازداد عدد الحضور في مجموعة التاريخ الثقافية مع كل لقاء. أصبحنا اثني عشر طالباً. وكل لقاء أربعاء مع المعلم بلمز قدّم لنا شيئاً جديداً؛ لذا كان لدينا طوال الأسبوع قصيدة جديدة أو لوحة، أو مبنى تاريخي، أو رمز للبحث فيه. وكان هذا شائقاً جداً إلى درجة تقلص فيها اهتمامي بشكل ملحوظ بالمواد التافهة التي تدرس في المدرسة، على سبيل المثال: وجب علينا في الدراسات الاجتماعية حفظ أول خطاب لزعيم الدولة الجديد الرفيق غورباتشوف، الذي بدأه بتقديم تعازيه بوفاة سلفه الرفيق

تشيرنينكو الذي حل لفترة قصيرة محل سلف الرفيق بريجينيف، الرفيق أندروبوف الذي رحل سريعاً، كان علينا أن نحفظ عن ظهر قلب ما يلي:

الحزب الشيوعي في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية حزب أممي بطبيعته. يمكن طمأنة كونفدرالياتنا في الخارج: سيتعاون حزب لينين بشكل وثيق، كما تعاون دائماً، مع الأحزاب الديمقراطية الشيوعية العمالية والثورية في نضالها من أجل السلام والتقدم الاجتماعي، وسيدافع عن التضامن بين جميع القوى الثورية، وعن التعاون الحقيقي. يجب علينا مواصلة تعزيز الحزب وتنمية دوره التنظيمي والقيادي بغية تحقيق المهام المعقدة الموكلة إلينا. سوف يظل الاتحاد السوفييتي مرتكزاً إلى فكرة لينين القائلة: إن السياسات المبدئية هي السياسات الصحيحة الوحيدة.

كاد عقلي أن ينفجر. تقوض ما تعلمناه من خطاب الرفيق شيئاً فشيئاً بما قرأه علينا المعلم بلمز: «من استولى على العالم، وأراد التلاعب به، لن ينعم بالسلام. العالم إناء مقدس ينبغي ألّا يُتدخل فيه».

بدأت أكره المواد المدرسية. احتجت رأسي للأمور الأخرى الأكثر أهمية التي زرعها فيه المعلم بلمز.

طلب منا جميعاً -في أحد أيام الأربعاء- الاجتماع في محطة الحافلات في يوم السبت التالي، وأن نحضر حقائب الظهر والسندويشات والشاي. ستقوم مجموعتنا بنزهة. كنت قد خططت بالفعل للذهاب إلى منزل أمي، لكن دعوة المعلم بلمز مغرية. على أية حال، لا يزال أمامي متسع من الوقت لزيارتها في عطلة الشتاء.

توقفت الحافلة في صباح ذلك السبت -بعد عدة ساعات- عند محطة ريفية نائية. كان الطقس متجمداً في الخارج، على الرغم من أنها لم تثلج بعد. تبعنا معلمنا في طابور واحد، عبرنا حقلاً مهملاً لنصل إلى كنيسة قديمة. كان الباب نصف مفتوح، وأغلقه

المعلم مؤقتاً. وقفنا خارج الكنيسة. أخبرنا عن الأشخاص الذين بنوها وأحبوها، وعن الذين جاؤوا إليها للصلاة، ولتعميد أطفالهم، ولإقامة حفلات الزفاف والجنازات، وعن قارع الأجراس الذي أصيب بالصمم بسبب الرنين، وعن القس الذي خانه قارع الأجراس، وعن لوحة المذبح التي اختفت.

فتح الباب بعد أن أنهى قصته؛ لندخل إلى الكنيسة. ثمة أنقاض في الداخل نبتت عليها أعشاب وشجيرات. استطعنا أن نرى من خلال النوافذ المكسرة السماء الموحشة، وجرس الكنيسة الصامت المعلق فوقنا. نظرنا جميعاً إلى الأعلى.

قال المعلم: «انظروا، لقد قطع لسان الجرس، ولم يعد قادراً على الرنين».

سألنا المعلم لاحقاً، ونحن نأكل السندويشات ونشرب الشاي أمام النار بالقرب من الكنيسة، عن الأفكار التي أوحاها لنا الجرس.

لا بد أن يكون العبقري مختلفاً كالعادة. قال: إن الجرس محظوظ بطريقة ما؛ لأن ليس عليه القلق أبداً بشأن إمساك لسانه مرة أخرى.

ضحك الجميع من أعماق قلوبهم، بمن فيهم المعلم بلمز.

سألني المعلم: «وأنت ما رأيك؟».

حدق الجميع فيّ بصمت. كانت النار تئز. وأجج الصمت واللهيب وجنتاي.

- يذكرني ذلك الجرس بأمي.

تعالى صوت الصمت والأزيز.

*

جاءت ابنتي خلال عطلة الشتاء. وضعت جيسي في غرفتها غصن من شجرة تنوب مع أكواز صنوبر كبيرة، بمناسبة عيد الميلاد. ومسحت الغبار، ونظفت الأرضيات.

كانت بازلاء جيسي تجف في قدرها في المطبخ. أرادت جيسي أن تجعله عيد ميلاد جميلاً، لكنني لم أُبد أي اهتمام. لعلها استاءت، فقد تركت منزلنا النظيف والأنيق وهدايا العيد التي أعدتها بنفسها. ولم تعد طوال الأيام المقدسة، ولا حتى في ليلة رأس السنة.

انشغلت ابنتي في المطبخ. أغرتني رائحة الطعام الشهية بالنهوض وارتداء ملابسي للمرة الأولى منذ أيام.

قلت من غرفتي: «لا أظن أن جيسي ستأتي مرة أخرى. و ستتوقفين أنت قريباً عن المجيء أيضاً».

ردت ابنتي من المطبخ: «لا يمكنك أن تيأسي بهذه السهولة الآن، يا ماما. إنني أطهو الأضلاع مع مخلل الملفوف. انتظر زوج أمك قبل السنة الجديدة ساعات عند الجزار، واشترى مخلل الملفوف من السوق. أرسلا لك أطيب تمنياتهم، وهدية صغيرة أيضاً».

أضلاع مطهية مع مخلل ملفوف، وهدية. الأشياء البسيطة في الحياة. شعرت بوخزة ألم من الفكرة.

ارتديت بنطالاً سميكاً وسترة بصعوبة كبيرة.

لقد جرحت لتوي صديقتي المخلصة جيسي. ولم أرغب في جرح ابنتي أيضاً.

كانت تدندن بهدوء في المطبخ، وتبث الحياة فيه كما فعلت جيسي. القدر يغلي على نار هادئة. وانبثق الدفء من موقد الحطب. نفح الفحم والضلوع في مخلل الملفوف طيبهما.

- الفحم جاهز يا ماما. دعينا نضع فيه البطاطا بقشرها. هل لديك بطاطا؟

- بطاطا؟ ربما. ربما يكون لدينا بعض منها، إن أحضرتها جيسي.

صاحت ابنتي بسعادة: «انظري! يوجد بعض منها بالدلو في المخزن. سوف أغسلها».

جلست إلى طاولة المطبخ، أشعلت سيجارة، وراقبت حركات ابنتي، كانت أنثوية ومنزلية، ومرحة ومدروسة: كيف رفعت غطاء القدر، وتذوقت محتواه، وكيف أضافت الملح، وكيف نظفت البطاطا ووضعتها على منشفة مطوية بدقة حتى تجف، وكيف رتبت الأطباق والسكاكين والشوك على الطاولة، وكيف وضعت الزبدة في الطبق الصغير، والشمعة وغصن التنوب في مزهرية صغيرة.

جلسنا إلى هذه الطاولة الاحتفالية في جزيرة حياتنا هذه. تحدثت بحماس عن مدرستها، وعن العبقري، وعن المعلم بلمز، أذكى شخص في العالم.

قالت: «هل تتذكرين كيف رسمتني؛ لأكون شخصيتين في كرنفال مدرستنا يا ماما؟ أنا الآن فعلياً شخصية منفصمة، شخصية تعلمها المدرسة، وأخرى يعلمها المعلم بلمز».

ثم شعرت بالحرج فجأة، وسألتني: «هل ستستائين إن قلت لك شيئاً يا ماما؟»

- لن أستاء.

أخذنا المعلم بلمز إلى كنيسة بعيدة، ورأينا فيها جرساً من دون لسانه. سألنا لاحقاً عن رأينا في الجرس.

- ماذا أجبت؟

- قلت إن الجرس ذكرني بك. صمت الجميع ولم يكن لدي المزيد؛ لأقوله. كان صمتاً رهيباً، لكنني لم أستطع أن أوضح بإيجاز لماذا ذكّرني هذا الجرس بك؛ لهذا السبب بقيت صامتة.

- ولماذا بالفعل ذكرك الجرس بي؟

- لأنه يبدو لي غالباً، أن شخصاً ما سرق فرحتك في الحياة، قطعها مثل لسان ذلك الجرس، ولا يمكنك الرنين بعد الآن، مثل الجرس تماماً. هل استأت؟

حدقت فيها. لحمي ودمي. كانت رغبتها في الحياة أقوى من الشيطان الذي نخرني.

- ألم تستائي؟

- بالطبع لا. أنت فرحي.

ارتدينا ملابسنا بحماس بعد الوجبة، وخرجنا. تساقطت الثلوج مدة ثلاثة أيام. ومن ثم نشرت الشمس المشرقة حجابها على الأرض البيضاء. توجهنا إلى النهر عبر طريقنا المعتاد.

قالت ابنتي: «دعينا نعرج على جيسي في طريقنا. إنها إنسانة طيبة، ويجب ألّا يجرحها أحد».

قذفت ابنتي كرة ثلجية على نافذة منزل جيسي المتواضع. خرجت بعد لحظة، متدثرة وسعيدة لرؤيتنا.

صاحت ابنتي بابتهاج: «جيسي، يا له من يوم جميل! دعينا نذهب إلى النهر».

ذهبنا ثلاثتنا. مشت ابنتي في الوسط، وذراعاها حول كلتينا.

بسطت كرة الشمس الذهبية أشعتها فوق النهر الأبيض. وقفنا مذهولات، متأثرات بالصمت البديع.

ثم صرخت ابنتي: «دعونا نتزلج على الجليد! ماما، جيسي، هيا لنتزلج!».

أمسكت بأيدينا، وسرنا نحو النهر. تزلجنا جيئة وذهاباً حتى سقطنا على الجليد الناعم. استلقينا ثلاثتنا لحظة هناك، أيدينا متشابكة، ونحدق في الشمس.

*

تابعت، بعد قضاء عطلة الشتاء عند أمي، حضور مجموعة المعلم بلمز وإهمال دروسي؛ بدأت تتدنى علاماتي المرتفعة. قلقت معلمتي الرئيسة؛ فوعدتها أن أبذل جهدي. كما قلق جديّ أيضاً.

هل أصبحت واجباتي حيال المدرسة وحيال مجموعة التاريخ الثقافية أكبر من طاقتي؟ كلا. أصررت أن كل شيء على ما يرام. شعرت شخصياً بالقلق إزاء شيء واحد فقط: أن تبدأ معلمتي الرئيسة وعائلتي بالارتياب بالمعلم بلمز؛ فأجبرت نفسي على إتقان المنهاج الدراسي. تعلمت كل ذلك التاريخ الغبي والدراسات الاجتماعية، وكتبت المواضيع الإنشائية المطلوبة، وأصبحت نموذجاً للطاعة في الدراسات العسكرية، واجتزت بصعوبة الكيمياء والفيزياء والجبر، وبدأت علاماتي تتحسن مرة أخرى. كل هذا في سبيل هدف واحد: وعدنا المعلم بلمز أن يأخذنا إلى لينينغراد، إلى متحف الأرميتاج خلال عطلة الربيع. لن يعترض أحد على الرحلة إذا حصلت على نتيجة جيدة. تنهدت جدتي؛ لأنها تذكرت الأذى الذي ألحقته لينينغراد بأمي.

قلت لها: «توقفي أرجوك. لا تضيعي عليّ الرحلة؛ فأنا متحمسة جداً لها».

كانت الرحلة ذريعة جيدة لعدم زيارة أمي خلال عطلة الربيع. كتبت لها موضحة: أنني على الأرجح سأذهب في رحلة رائعة إلى لينينغراد. أرسلت لي بطاقة بريدية عليها إطلالة على نهر نيفا وجسوره، لا بد أنها تعود إلى فترة وجودها في لينينغراد. كتبت عليها جملتان فقط: «استمتعي برحلة رائعة. وتحياتي إلى نهر نيفا وإلى المعلم بلمز».

أكاد لا أصدق، لكنها حدثت بالفعل. جلسنا في اليوم الثاني من عطلتنا الربيعية في عربة من الدرجة الثانية في قطار ريغا-لينينغراد. درست حد الإعياء، ووفى المعلم بلمز بوعده.

توجهنا في صباح اليوم التالي، مع أننا بالكاد نمنا، إلى الأرميتاج مباشرة. وقفنا في نهاية طابور طويل جداً، مستعدين للاستعانة بجميع احتياطياتنا من الصبر؛ لأن الجو بارد للغاية. بجوارنا، دخلت مجموعة من الأجانب إلى المبنى بسرعة. جاؤوا في حافلات مريحة، ورحبوا بهم في الداخل دون قضاء أي وقت في البرد. تناوبنا، ونحن ننتظر دورنا متجمدين، على ترك الصف للقفز

والجري قليلاً. دخلنا إلى الأرميتاج بعد موعد الغداء تماماً.

بدأ رأسي بالدوار بعد المرور بأول قاعتين للمعارض. عثرت على مقعد، وجلست. كان عالماً يطيح العقل. لم أحاول فهم شروحات المعلم بلمز. سمحت فقط لكلماته وللوحات أن تعبرني كما تعبر الحبيبات الناعمة الغربال، ألتقط فكرة من هنا وهناك، وأنميها في تربة خيالي الخصبة.

توقف الزمن. تجولنا في القاعات كما لو أننا ممسوسون. أوشكنا على استنفاد قوانا. ثم رأيت قمراً أخضر لامعاً مرسوماً على لوحة سوداء. جلست على الأرض أمام اللوحة، ولم أستطع المبارحة. سحبتني اللوحة إلى ظلامها ونورها اللذين يتصارعان في مساحة صغيرة مربعة الشكل. كنت هناك بين القمر الأخضر والظلام الذي اختفى فيه كل شيء: أنا، ووالدتي، وجدتي، وزوج جدتي، والهامستر في قفصه، والتمثال الطيني الصغير الذي صنعته. تلولب كل شيء، كما لو أنه في دوامة، ثم تلاشى في الظلام.

استعدت وعيي، والمعلم بلمز يقول: «أغمي عليك قرب كويندزي». تحلّق حولي أعضاء المجموعة الخائفون، وأحضر حراس المتحف كوباً من الماء.

ذهبنا في الليل؛ لنرى كيف تُرفع الجسور فوق نهر نيفا: انفتحت فكوك الجسر، وشمخت بشكل مهيب؛ لتقابل السماء المليئة بالنجوم. تدفق في الأسفل النهر الذي كنت أقول له: مرحباً من أمي.

*

جاءت ابنتي لرؤيتي بعد أربعة أسابيع من عطلة الربيع: نحفت، وقضت وقتها في غرفتها، أو في المطبخ تنظر بلا مبالاة من النافذة؛ حدث شيء ما.

لم نعتد على استنطاق بعضنا بعضاً. لكن، انبعث صوت بكاء مكتوم من غرفة ابنتي في المساء؛ فدخلت مباشرة.

قالت وهي تبكي: «استغنوا عن المعلم بلمز بعد رحلة لينينغراد، يا ماما. أخبر أحدهم مديرة المدرسة أنه أغمي علي قرب لوحة، وفصلوه من العمل. لكن هذا ليس كل شيء».

سألتها: «أغمي عليك قرب لوحة؟».

- نعم، كنت حائضاً ومتعبة، بالإضافة إلى أن اللوحة كانت جميلة بشكل لا يصدق: قمر أخضر وظلام فقط. تمعنت فيها مطولاً. ثم فجأة بدا وكأن الظلام سحبنا جميعاً إليه، أنا وأنت وجدتي وزوجها، والطفلة الصلصالية الصغيرة. أظلمت الدنيا أمام عيني، وفقدت الوعي.

بكت بشكل مخيف، مثقلة بشعور هائل بذنب لم يكن ذنبها؛ لتحمله.

- هذا ليس سبباً لطرد معلم.

- مجرد ذريعة. تبين أنهم يراقبون معلمنا منذ اليوم الأول الذي التقت فيه مجموعتنا. واتضح أن شخصاً ما من بيننا يكتب تقريراً بكل شيء، كل شيء بالكامل، إلى مديرة المدرسة. وهي تنقله بدورها إلى المخابرات الروسية.

جلست أصغي قرب سرير ابنتي. اعترتني موجة كره خانقة. بدا كأن شبح وينستون يقف خارج النافذة. علامات تعذيبه واضحة، بالكاد يمكن التعرف إليه. أرغم على الإقرار «بحقيقتهم» وقبولها. هذا الشبح الذي أثقل كاهلي فترة طويلة، يثقل كاهل ابنتي الآن أيضاً.

قالت وهي تذرف الدموع: «لكن، هذا ليس كل شيء يا ماما. بعد أسبوع من الرحلة، استدعتني المديرة من الصف، وقادتني إلى غرفة بجوار مكتبها. كان الأمر شبيهاً بوقت الكتابات على الرصيف بالطبشور. وهناك يا ماما، جلس رجل مربع في تلك الغرفة، رجل مخيف برأس ضخم وشعر خفيف وعيون شريرة».

مررت يدي على رأس ابنتي. سرت فيّ قشعريرة كما لو أنها

اندفعت من زمن بعيد، من زمن أشجار التنوب الصغيرة التي حاول أبي حمايتها، من الحقيبة الباردة التي أخفتني فيها أمي، من الأستاذ العجوز الذي نقل حديثنا عن الله، من غرفة شارع إنجلز التي أنكرت فيها كل شيء، من وجه زوج سيرافيما القبيح، من قفصي السوفييتي الذي واصلت العيش فيه دون شجاعة على أكل طفلتي. حاربت هذا القهر بكل ما أوتيت من قوة. يجب ألّا ترتعش يداي، يجب أن أفرّج عن طفلتي الباكية.

- سألني: هل أخذكم المعلم بلمز إلى كنيسة؟ هكذا، بهذه المباشرة. شعرت بالخوف من تعابيره الشريرة إلى درجة أنني ارتعدت، ولم أقل شيئاً. ثم مشى إلى خلفي يا أمي، ووضع إحدى يديه على كتفي، وقال بصوت مخيف: لن تتخرجي في هذه المدرسة، ولن تقبلي في أي جامعة إذا لم تجيبي. وقلت: أخذنا! قلت: أخذنا يا ماما. نشجت ابنتي، وتابعت: كان يجب أن أكذب، وأقول أنه: لم يأخذنا، لكنني قلت له الحقيقة: أنه أخذنا. واصل الرجل الشرير تعذيبي، هل قرأ لكم نصوصاً شعرية، ونصوصاً أخرى غير موجودة في المنهاج المدرسي؟ قلت: قرأ، وبكيت. كان يجب أن أكذب، وأقول: لا، لم يقرأ، لكنني أخبرته الحقيقة: أنه قرأ. كان ينبغي أن أنكر كل شيء، وأن أكذب يا ماما. عاد بعد ذلك إلى مكتبه، وسحب ورقة بيضاء وقلم حبر جاف، ووضعهما أمامي. قال بصوت هادئ وبارد تماماً: والآن، سوف تكتبين كل هذا. ستكتبين أن المعلم بلمز أخذكم إلى كنيسة، وقرأ لكم نصوصاً شعرية ونصوصاً أخرى غير موجودة في المنهاج المدرسي. وتوقعين باسمك وكنيتك وصفك.

رفضت أن أكتب؛ فنهض الرجل الشرير من وراء مكتبه مرة أخرى يا ماما. ووقف ورائي مرة أخرى، لكنه في هذه المرة وضع كلتا يديه على كتفيّ، وضغط عليهما بشدة حد الألم.

تعرفين، بالطبع، كيف انتهى المطاف بأمك، هذا ما قاله يا ماما. بحلول يوم غد ستكونين مطرودة من المدرسة، ولن تنفعك علاماتك الجيدة بشيء.

أدارني؛ لأقابله. احمرّ وجهه وصرخ: طريقة الرفيق بلمز تسمّم شبابنا، وتبعدهم عن المسار السوفييتي. لو كان الرأي لي؛ لأودع السجن. لم تعد هذه الأوقات مناسبة لذلك، لسوء الحظ. لكن، لن تطأ قدمه هذه المدرسة مرة أخرى، أبداً. اكتبي!

كم بكت طفلتي بعد ذلك؛ حاولت أن أفرج عنها.

- فتح الباب بعد ذلك يا ماما، ودخلت المديرة. كان وجهها قاسياً ولئيماً. جلست إلى طاولتها، وصالبت أصابعها الثخينة، وبدأت تتكلم مثل ذلك الرجل الشرير تماماً: «الآن، من الأفضل ألا تدمري بقية حياتك. لقد كتب الآخرون أوراقهم، ووقعوا».

سألت وأنا أبكي: «الأحد عشر كلهم»؟

أجابت: «الأحد عشر كلهم، ومن دون هذه الميلودراما».

هذا يعني: أن العبقري كتب بالفعل اعترافه، يا ماما! ثم أضافت المديرة: «لو لم تكن علاماتك عالية؛ لما تساهلت معك هكذا. اكتبي، ووقعي». ثم، كتبت يا أمي.

بكت ابنتي بحرقة؛ قطّعت قلبي معها.

كتبت: أن المعلم بلمز أخذنا إلى كنيسة، وقرأ لنا نصوصاً شعرية ونصوصاً أخرى غير موجودة في المنهاج المدرسي. كتبت ووقعت باسمي وكنيتي وصفي.

حضّرت بعضاً من شاي البابونج مع العسل لابنتي. شربته ونامت، بعد أن بكت حتى جفّ دمعها. عندما سمعت صوت تنفسها الهادئ، أغلقت باب غرفتها.

لفني الظلام في غرفتي. فتحت النافذة. الجو ربيعي في الخارج. أشعلت سيجارة. وانحسرت القشعريرة رويداً رويداً.

كانت السماء ساطعة على نحو غير عادي. خرجت إلى الحديقة. يا لهذه السماء المليئة بالنجوم! امتد درب التبانة فوق رأسي مباشرة ضخماً وبعيد المنال. راقبته طوال الليل حتى الفجر.

حدقت في السماء حتى اختفى درب التبانة، وصاح الديك في بيت الجيران.

*

بدت المدرسة فارغة من دون المعلم بلمز. حاولت ألا أنظر في عيني العبقري، على الرغم من أنه تصرف كما لو أن أمراً استثنائياً لم يحدث. تجنبت لقاء بقية المجموعة، لكنهم تصرفوا أيضاً كما لو أن شيئاً لم يحدث، عندما التقيتهم مصادفة في ممرات المدرسة. الجميع مرحون؛ فبعد أقل من شهر تقريباً تبدأ العطلة الصيفية. لقد سببت الكثير من القلق لجديّ. قلقا علي جداً بعد التحقيق، إلى درجة أصبحت فيها عبئاً. قررا استئجار غرفتين قرب البحر وقضاء الصيف هناك. و قررت أنا الذهاب إلى أمي.

أديت واجباتي المدرسية بشكل آلي، وتعلمت كل ما طلب مني. راقبتني معلمتي الرئيسة. اضطررت أن أبذل جهداً أكبر من زملائي في التاريخ والدراسات الاجتماعية. استسلمت، وأمضيت كل وقتي في الدراسة. عددت الأيام المتبقية لنهاية المدرسة. كان لدي روزنامة أشطب فيها كل يوم يمر.

كان الوقت أواخر شهر نيسان/ أبريل عندما اهتزت البلاد جراء انفجار محطة تشيرنوبل للطاقة النووية. ضاعفت مديرة المدرسة دروس التربية العسكرية ثلاث مرات. وبناءً على أوامر المدرب، وضعنا أقنعة الغاز، ونزعناها حتى سئمنا منها، وتعبنا.

حدثتنا مدرّستنا الرئيسة عن الأطباء والمتطوعين اللاتفيين الذين يجب عليهم الآن الذهاب إلى تشيرنوبل وتقديم المساعدة. ذكرت ابنها الطبيب كمثال. وأن واجبها كأم إقناع ابنها بأن مكانه في تشيرنوبل. لقد نجحت في ذلك، وذهب ابنها الآن إلى موقع الكارثة النووية لمساعدة الضحايا.

لم أفهم تفاني هذه المعلمة. عرّض ابنها نفسه للخطر بتشجيع منها. لكن ليس عليّ فهم أي شيء. عليّ فقط الإصغاء لما يشكل الواجب تجاه وطننا الأم العظيم، وأن أتحلى بسمة الشجاعة

لمواطن سوفييتي مسؤول.

حدقت من النافذة، وخطرت على بالي كلمات المعلمة. تجردت أشجار الكستناء الباسقة من أوراقها على الجانب الآخر من الشارع. ستزهر الأشجار قريباً. سوف أغادر المدينة، وأركض عبر الحقول، وأسبح، وأجلس ساعات على ضفة النهر، وأحث أمي على الخروج في نزهة، ولن نذهب إلى الفراش حتى وقت متأخر في الأمسيات الدافئة. سأخرج والدتي من مخبئها المليء بالكتب ومنافض السجائر وقلوب التفاح وأكواب القهوة، وسوف نقطف أولى فطور الشانتريل في الغابة. سوف أقرأ كل ما أوصى به المعلم بلمز. سأقرأ كل ما هو موجود على رفوف أمي. سأقرأ نكاية بالرجل ذي العيون الشريرة، ونكاية بالمديرة وبزملائي الأحد عشر الذين أدانوا المعلم بلمز، ونكاية بنفسي؛ لأنني أدنته أيضاً؛ لأنني كنت مذعورة. كرهت خوفي. بدا الصيف وكأنه تحرر مما شعرت أنه مؤسسة الجناة الشباب. علي تحمل عامين آخرين فقط.

- «إنني فخورة بابني»، أعادتني كلمات المدرسة هذه إلى الصف.

انتشر خبر مأساوي في مدرستنا بعد أسبوعين، في الوقت الذي أزهرت فيه أشجار الكستناء تقريباً. لقد قُتل نجل معلمتنا الطبيب في تشيرنوبل. تجولت بلباس أسود وشريطة سوداء معقودة في شعرها. أعرب الجميع عن تعاطفهم معها. وجب عليها انتظار تابوت الزنك؛ ليعيد ابنها من واجبه في الخارج، الذي شجعته هي على القيام به.

أصبحت أشد قسوة بسبب حزنها؛ فعلى الرغم من أن العام الدراسي كان في نهايته تقريباً، عاقبتنا بتعلم المزيد من دروس التاريخ، مضيفة المزيد والمزيد من الواجبات المنزلية والاختبارات.

كانت تختفي في مكتبها في أثناء إجراء الاختبارات، لكننا تمكنا من سماع بكائها المكتوم عبر الجدار. انكببنا فوق دفاترنا حتى لا نضطر إلى النظر إلى بعضنا البعض. ستعود بعد أن تمسح عينيها

81%

إلى الفصل مع اقتراب نهاية الساعة، وسوف تنبح: «إنني فخورة بابني. لقد أدى واجبه».

رأيت كيف تجسد حولها قفص، وكيف انكمشت، وتحولت إلى هامستر يلتهم أولاده. كانت صورة حقيقية ومرعبة إلى درجة شعرت فيها بالإعياء. ساد صمت مخدّر في الفصل.

لم يجلب الصيف التحرر الذي تأملته. ظهرت جيسي عند باب منزلنا في حالة شبه انهيار قبل يوم واحد من مغادرتي. تلعثمت: «والدتك على قيد الحياة، نقلوها إلى المستشفى الجديد الكبير هنا في الضواحي».

- ماذا حصل يا جيسي؟

أجلسناها في المطبخ، وأشربناها شاي جدتي. وسرعان ما تمكنت من إخبارنا بما حدث.

لقد انعزلت والدتي تماماً بعد زيارتي الأخيرة. لم تعد تذهب إلى المركز الصحي، حتى في اليومين اللذين من المفترض أن تعمل فيهما. قالت جيسي: «لا أعرف حقاً، لكنني أعتقد أنها فصلت من عملها». كانت تجلس في الخارج عندما يحل الظلام، وتحدق في السماء. حاولت جيسي التحدث إليها دون نجاح. وكل ما حصلت عليه عبارات متقطعة، إجابات من أجل الإجابة فحسب.

حاولت جيسي أن ترفّه عنها: «الصيف مقبل، وسنكون ثلاثتنا معاً هنا. وسيكون كل شيء على ما يرام». التفتت والدتي إلى جيسي، ونظرت إليها بطريقة ساخرة، وقالت: «أجل يا جيسي، أجل. سيكون كل شيء على ما يرام. جميعنا بشر فحسب». ونظرت أمي إلى الأعلى في الظلام مرة أخرى.

مرت جيسي بعد عملها في مساء ذلك اليوم؛ لتعد العشاء. كان باب غرفة أمي مغلقاً. دقت جيسي الباب، لكن أمي لم تجب. استشعرت جيسي أن شيئاً مريباً قد حدث. طرقت بإصرار أكثر، لكن لا جديد. أُغلق الباب ببساطة بمزلاج صغير. تمكنت جيسي من فتحه.

قالت جيسي: «يا للهول! كانت راقدة هناك، وعيناها مفتوحتان، وحدقتاها متسعتان، ويداها تتخبطان في الهواء حولها. وتبعثرت عبوتان من الحبوب بجانبها؛ لقد ابتلعت محتوياتهما معاً».

أحنت جدتي رأسها، وقالت: «الطريق إلى الجحيم». وكررت: «الطريق إلى الجحيم».

تابعت جيسي بأنه: «سُمح لها بالذهاب مع والدتي التي كادت أن تموت وهي في طريقها إلى المستشفى في سيارة الإسعاف. أفرغوا لها معدتها. ولا تزال في العناية المركزة، لكن حالتها استقرت. لم يُسمح لجيسي برؤيتها، لكنهم سيسمحون بإدخال ابنتها أو والدتها».

تكلمت جيسي نحو عشرين دقيقة. لكني شعرت كأنها عشرون سنة من الكلام، ومرت هذه السنوات هنا في مطبخنا، حيث تتفتح الهندباء في الفناء، وسينضم إليها الليلك سريعاً. سيجلس جدايّ في ظل ذلك الليلك، سعيدان مرة أخرى بالشعور بدفء بداية الربيع. وربما يلعب أطفال صغار في حفرة رملية عند أقدامهم، وتأخذ الطيور حمامّات رمل. لكني أنا لا وقت لدي للربيع. عليّ أن أكبر بسرعة، أسرع من الكلمات المتدفقة من فم جيسي. وعلي أن أكون شجاعة لسماع قصتها حتى النهاية.

قلت: «ابقي الليلة معنا يا جيسي. استحمي، واستريحي».

وافقت جدتي دون حماس: «أجل، ابقي معنا يا جيسي».

- سأحاول الذهاب لرؤيتها الليلة. يجب علي الاتصال بالمستشفى أولاً.

سألت جدتي: «لن تذهبي وحدك يا حبيبتي، أليس كذلك؟».

- سأذهب، ويجب أن أذهب وحدي.

انطلقت الحافلة نصف الفارغة من نهاية شارع لينين باتجاه غابة

الصنوبر. جلست قرب إحدى النوافذ. كل شيء أعطتني إياه جدتي لآخذه معي في حضني: فرشاة الأسنان، ومعجون الأسنان، والشبشب، وثوب النوم، وفرشاة الشعر، والصابون، والملابس الداخلية، والجوارب الدافئة. اكتست الشجيرات في الغابة خلف النافذة خضار بداية الربيع، مشرق إلى درجة أبهرتني. كانت بعض السيدات المسنات يبعن زهور الربيع بالقرب من المستشفى.

كانت أكثر ساعات الزيارة ازدحاماً. تسارع الناس فوق بلاط مدخل المستشفى الحجري؛ ليحضروا لأحبائهم الطعام المنزلي والزهور ولوازم الحياة.

أصغى إليّ الطبيب المناوب في العناية المركزة باهتمام. وضع جواز سفري بجانب جواز سفر والدتي.

قال: «إنك صغيرة جداً. هل أنت متأكدة من أنك تريدين رؤيتها الآن؟».

أجبت: «نعم».

تبعت الطبيب في الممرات اللامتناهية. شعرت أننا نهبط أعمق وأعمق نحو العالم السفلي. أخيراً، ظهرت لوحة «العناية المركزة» بالضوء الأزرق.

قال الطبيب، وهو يفتح باب الجناح: «لم تستعد وعيها بعد. إن تسميم نظام المرء بأقراص الدواء يهدد الحياة».

رقدت والدتي على السرير عارية حتى خصرها. وُصِلت بلصيقات وُضعت على صدرها مع أنابيب وُصلت أيضاً بأجزاء مختلفة من المعدات الطبية. وعلى شاشة قريبة خطّ نبضات قلبها المتعرج.

مسدت شعر أمي المتلبّد كالعادة. ربّت على أذنها وعنقها وصدرها. كانت دافئة. دافئة وهادئة، نامت محيلة إشارة حياتها إلى صندوق معدني.

دخل الطبيب بعد برهة.

قــال: «أعتقـد أننـا سـننقذها. وأنـت أيضـاً يجـب أن تسـاعدي باستعادتها».

استعادت أمي وعيها بعد ثلاثة أيام، ونقلت إلى الجناح العادي. جلست أنا وجدتي بجوارها، بينما انتظر زوج جدتي على كرسي في الخارج حتى لا تنفعل أمي عاطفياً خلال المواجهة الأولى هذه. أكلت ملعقتين من حسائنا، ثم أغمضت عينيها، وقالت هذه الكلمات القليلة فقط: «إنه لأمر مؤسف».

تحـدثت جـدتي مـع الطبـيب فتـرة طويلـة، واتخـذا قرارهمـا. اسـتعدوا لنقـل والـدتي إلى مستشفى الأمراض النفسية، حيث ستبقى مدة شهر على الأقل تحت إشراف طبي. يجب أن تعالج.

وضـح لنـا الطبـيب: «لـيس أمـامنا خيـار؛ حـاولت إنـهاء حياتـها؛ حاولت عن وعي، رغم كونها أماً وطبيبة».

ضـاع منـي الصيف على البحر مع جديّ، وضـاع منـي فـي منزل والدتي مع جيسي. كل ما فكرنا فيه، وتحدثنا عنه، كان هي. كنت أذهب لرؤيتها في مستشفى الطب النفسي ثلاث مرات أسبوعياً. وجـب علـيّ أن أوقـع؛ ليفتح حاجب المستشفى الباب، ويسمح لأمي بالخروج للمشي معي في ساحة مستشفى المجانين.

كنا نمشي بشكل دائري، أو نجلس على المقاعد المكسرة. دخنت أمي بشراهة وبلا توقف، كما لو أنني أحضرت لها إكسير الحياة في علب السجائر.

قـالت: «سلّمي علـى جيسي، وعلـى أمـي وزوجـها». أعـادت نفس الكـلام مـراراً وتكـراراً. لـم أتمكن من استجماع الشجاعة لطرح السؤال الذي كان يمزقني إلى نصفين.

سألتني: «كيف حال البحر؟ هل تذهبين إلى منزلنا أيضاً؟ لا بد أن جيسي تهتم به جيداً».

هي تسأل، وأنا أجيب باختصار: بنعم، أو لا، أو بالتأكيد، أو جيد، أو كالعادة.

اختتمت فجأة وهي مستاءة: «أنت لا تريدين التحدث معي».

رددت عليها: «أنت لا تريدين أن تعيشي؟».

أجابت أمي: «لا أريد».

سألتها: «إذن، ما الذي سيحدث الآن؟».

- سوف يخرجونني بعد شهر، بعد تحديد فئة دعم الإعاقة التي أندرج ضمنها. ثم سأعود إلى المنزل. أريد أن أكون في المنزل. الوضع مريع في الداخل هنا.

- ونحن، هل علينا أن نعيش في خوف دائم عليك يا ماما؟ أنا خائفة عليك. خائفة يا ماما. خائفة منذ طفولتي المبكرة.

- «سامحيني، سأحاول. سوف أحاول! سامحيني»، كررت والدتي هذه الكلمات بشكل متقطع، وهي تدخن.

- اسمعيني يا ماما، كل شيء مزهر حولنا. يمكننا الجلوس في حديقتنا، والثرثرة مع جيسي، وتحضير كريمة الفريز، والمشي في الحقول، والسباحة في النهر...

قالت أمي: «عانقيني. عانقيني بقوة، وقبليني». ظهر لي وجهها فجأة في ضوء الشمس الحاد. لقد شاخ فجأة. ترهلت البشرة الناعمة، وانبسطت هالات سوداء تحت عينيها اللتين امتدت على جانبيهما خطوط الحزن العميقة، كما لو أن فيض الدموع المالحة المتواصل حفرها في وجهها القاسي.

عانقت أمي، وقبلتها.

- لقد عدت. استرجعتك بقوة، لقد عدت. و سيكون كل شيء على ما يرام يا ماما.

*

أخرجوني أخيراً في نهاية شهر آب/أغسطس. عاملتني الطبيبة المسؤولة كما لو أنني أحقر مخلوقة على وجه الأرض: أم،

وطبيبة، ولكن مريضة نفسية في شارع تيفيايكا. أعطوني عقاقير تكفي لسقوط حصان. وأنا سمحت لهم بذلك.

جـــاءت ابنتــي وجيســي لمســاعدتي فــي توضـيب الحقيبــة واصطحابي إلى المنزل. حاولتا التحدث عن كل أنواع التوافه حتى خرجنا من بوابة المصحّة.

قالت جيسي بكل عزم: «اسمعي! يجب ألّا تعودي إلى هنا مرة أخرى إطلاقاً».

أمسكت ابنتي يدي بقوة. قادتني كما لو أنني عنزة جامحة، قد تفلت منها في أي لحظة.

قلت لها: «سرقت منك صيفك».

أجابت بلا أدنى انفعال: «لا يزال أمامنا أسبوعان. سنتمكن من الذهاب لقطاف الفطر».

رحبت بي حديقتي وبيتي المرتب النظيف. كم من الآلام تحملت هاتان الفتاتان! فاحت رائحة التفاح في غرفتي. ووضعتا مزهرية مـن زهور الأقحوان على الطاولة التي أعدت من أجل الطعام. كانت الحياة بانتظار عودتي.

شغلتا نفسيهما حولي، في تسخين الطعام، وفرد الحقائب. وأنا أراقبهما. أردت إيقاف ما كان يحدث مثلما يوقف المرء أي سيارة عابرة؛ لتوصله. لكن، كل ما كان يحدث تخطّاني. أردت أن أقول: «جيسـي، توقفي عـن الصخب! نحـن علـى درب التبانـة، نلعـب ونغطس أرجلنا حتى تختفي أقدامنا». لكنني صمتّ، وراقبتهما، وهما يُعدّاني لمتابعة العيش.

قالت جيسي بسعادة: «لقد نجحت في الحصول على عمل من أجلك. شد فُرش سلكية، خاصة بإزالة الصدأ. يمكنك كسب مال جيد. لست بحاجة لأي وثائق؛ سيكون العمل رسمياً باسمي».

أعـربت ابنتـي عـن عدم اقتناعها، «شد فرش سلكية!؟ ولكن يا جيسي: هل لا يزال بإمكان ماما الذهاب إلى المركز الصحي

والتحدث بخصوص وظيفة؟».

قالت جيسي: «لن تستفيد شيئاً. لقد سمعوا الخبر. وعرفوا كل شيء عمّا حدث».

قلت بكل بصدق: «شد فرش يا جيسي، يا للروعة، شكراً لك. سأشد الأسلاك من صميم قلبي وروحي». لكن ابنتي وجيسي لمستا سخرية في صوتي.

- هل يمكنك الحصول على شيء أفضل؟ ما مقدار تعويضات العجز التي ستحصلين عليها، ومتى؟ بالإمكان لمس المشاعر المجروحة في كلمات جيسي. و تابعت: «سأساعدك في البداية. أعرف الطريقة. إنه ليس عملاً معقداً».

- حسناً يا جيسي، حسناً، سوف أشد الفرش.

شعرت بالضعف، وأردت الاستلقاء في غرفتي. غطتني ابنتي ببطانية.

قالت وهي تربّت على رأسي: «نامي قليلاً يا ماما. استريحي».

سمعت ابنتي تتكلم مع جيسي، وأنا بين الصاحية والغافية.

- لقد استسلمت تماماً. إنها أذكى وأشجع منا جميعاً. إنها طبيبة ممتازة يا جيسي، تعرف كيف تنقذ الأرواح. لكنها تعرف أيضاً كيف تموت. كيف لنا أن ندعمها؟ لم عليها التعرض لكل هذا الظلم؟ كان من المفترض أن تعمل في معهد لينينغراد! لكنك الآن ستعلمينها شد الفرش! ما هذه الحياة التي أرغم فيها على خيانة المعلم بلمز، ولا ترغب أمي في العيش فيها على الإطلاق؟

سمعت جيسي تقول، وهي تحاول مواساة ابنتي: «لا تتكلمي هكذا. يجب تقبّل الظروف والتعامل معها وفق ما لدينا. إننا مرهقون من حمل الأعباء الثقيلة. علينا قبول كل شيء بتواضع، حتى شد الفرش السلكية. بعد ذلك نستعيد قوانا الروحية».

قالت ابنتي: «إنك تتحدثين بشكل جميل جيسي، كما لو أنك

كتاب».

غفوت. حرّرني النوم. ثم أيقظتاني؛ لتناول العشاء.

*

سرعان ما عاد العام الدراسي الجديد. أولتني معلمتي الرئيسة، التي استمرت في وضع شريطة سوداء في شعرها، اهتماماً خاصاً. سألتني عدة مرات عن حال أمي، وأجبتها بكل أدب: إن كل شيء على ما يرام. واستدعتني في أحد الأيام إلى حجرة مكتبها الصغير الضيق.

- لا يمكنك أن تتراجعي في أي مادة. يجب أن تكون علاماتك ممتازة.

- إنني أحاول.

- أعرف أين كانت أمك في هذا الصيف. وأعرف عن قضية بلمز. ينبغي أن تكوني نموذجية حتى لا يتمكن أحد من اتهامك بأي شيء.

أصبح وجه معلمتي القاسي حنوناً فجأة. أمسكت يدي، وبدأت تتحدث بشكل مختلف تماماً.

- طفلتي العزيزة، يجب أن تحافظي على نجاحك. لا يمكنك التراجع بأي شكل. عليك أن تكوني الأفضل.

طفلتي العزيزة؟ لقد ذهلت.

تابعت: «غالباً ما أشعر بالخوف عليك، أخاف أن تنهاري بسبب مكابداتك مع أمك».

شعرت فجأة بالأسف حيالها: «كل شيء سيكون على مايرام يا معلمتي. حال أمي أفضل، وعندها من يهتم بها».

قالت وهي تقدم لي قطعة حلوى: «جيد، هذا جيد جداً. لكن كل هذا يجب أن يبقى بيننا، اتفقنا؟».

- اتفقنا يا معلمتي.

تحسنت علاماتي، كان مجموعها في تقريري الشتاء والخريف جيداً جداً. أرغمت نفسي على الذهاب والبقاء مع والدتي في كلتا العطلتين الدراسيتين. استقرت حالتها إلى حد ما. تؤمّن جيسي قواعد الفُرش والأسلاك، وأصبحت أمي بارعة في شدّها، أظهرت موهبة كبيرة في هذا المجال، كموهبتها في تشخيص الأمراض. في الواقع، كانت تكسب كثيراً. أعطتني خمسين روبلاً كاملة مصروف جيب في كل عطلة.

أحضرت هدايا لجدتي وزوجها مع عودتي من هذه الزيارات. خبزت لنا والدتي البسبوسة أحياناً، وجلبت أنا دجاجاً مشوياً إلى البيت في بعض المرات، وطبخت لنا أيضاً الملفوف المحشي في أحيان أخرى. وكان مذاق كل ما صنعته شهياً.

استدعتنا مديرة المدرسة جميعاً في منتصف شهر كانون الثاني/ يناير إلى القاعة الكبيرة. استمعنا إلى محاضرة ألقاها العبقري. تمحورت حول العدد الأول لمجلة أدبية جديدة. سخر العبقري مع المديرة من المجلة وانتقداها من الصفحة الأولى حتى الأخيرة. صرخت المديرة: «هل هذا شعر؟». ينبغي ألّا يصعد المرء على المرحاض؛ لأنه عندئذ سيترك بصمات سوداء وكبيرة على الحوض الأبيض، «هل هذا شعر؟». سألت وأجابت عن سؤالها، ورمقت الطلاب المجتمعين في القاعة بغضب. أثارت هذه السخرية العلنية من المجلة اهتمامنا بها. مُرر العدد الأول من يد إلى يد، وقُرئ من الغلاف إلى الغلاف. بالتأكيد كان المعلم بلمز سيوصي بقراءتها.

لكن، حدث شيء فظيع في شهر شباط/ فبراير. دُفع شاعر شاب من نافذة أحد المباني السكنية العالية في منتجع يورمالا الساحلي. كان نفس الشاعر الذي قرأنا قصيدته في ورشة عملنا الأولى:

يعلو البحر ويهبط، ويعلو مرة أخرى ويهبط

(يعلو الآخرون ويهبطون، ويعلون مرة أخرى ويهبطون).

حدق فيّ من صفحة النعي في الصحيفة بشعره الطويل المجعد ونظاراته المربعة ووجهه الرجولي. كيف له أن يموت؟

اكتشفت موعد جنازته ومكانها. أخبرت الفتاة التي تشاركني المقعد في المدرسة: أنني سوف أذهب لحضور الجنازة، حتى لو كان ذلك في أثناء الدوام المدرسي. كانت ثرثارة عظيمة، وسرعان ما علم جميع الطلاب بنيتي. تقدم المزيد والمزيد من الطلاب للذهاب. الآن، نحن الصف بأكمله تقريباً، باستثناء قلة خافت.

حضرنا أول حصتين في يوم الجنازة. ثم اجتمعنا في حجرة إيداع المعاطف للاستعداد للرحلة. أمسكت بنا معلمة الصف الرئيسة والمديرة على درجات المدرسة. أخبرهما أحد ما بالطبع.

قالت المديرة، وقد شحب وجهها غضباً: «لن تذهبوا إلى أي مكان». ووقفت معلمتنا الرئيسة بجانبها، وهي تفرك يديها.

استمر زملائي في الفصل بالنظر إليّ.

قلت للمديرة: «سوف نذهب، سوف نذهب جميعنا». شعرت فجأة بنفس القوة التي شعرت بها في المدرسة الابتدائية عندما -بشأن أمي- حقّق معي الرجل الذي تفوح منه رائحة العرق.

كررت: «نحن ذاهبون»، واعتراني شعور بالغثيان في داخلي؛ لأنني تذكرت كيف أجبرني رجل المخابرات السوفييتية على تجريم المعلم بلمز.

قلت مرة أخرى بكل ما استطعت من وضوح: «نحن ذاهبون. ويمكنك طردنا جميعاً بعد ذلك».

بدأت مجموعتنا الرحلة. بقيت المديرة والمعلمة الرئيسة في الخارج على الدرجات في ذلك الصباح الشباطي المتجمد.

جمعنا أموالنا، وأحضرنا بعض الأزهار. كان الناس متسمرّين في

الوقت الذي وصلنا فيه إلى المقبرة. ثمة بحر من الناس. اندمجنا في الحشد، ولن ننفصل عنه أبداً.

*

جيسي خبيرة حقيقية في شد الأسلاك. علمتني هذه الحرفة الجديدة بالصبر كله. تأذّت يداي في البداية، لكنني أصبحت أكثر مهارة مع الوقت. كان عملاً ميكانيكياً، لكنه إبداعي كذلك بطريقته الخاصة. ينبغي سحب الأسلاك بإبرة خاصة معكوفة عبر ثقوب القاعدة الخشبية، ثم قصّها بأطوال متساوية. قالت جيسي متعجبة من مهارتي: «حسناً، لقد اعتدت على خياطة لحم النساء»، وسكتت، ظناً منها أن هذه الإشارة إلى الزمن الماضي قد تزعجني. لكن هذه الأبواب أغلقت. تشكلت كومة كبيرة من الفرش السلكية. أحضرت جيسي في نهاية الأسبوع صناديق وضعت فيها الفرش بعناية. وقبضت ثمنها نقداً. استمرت بأعمال التنظيف في المركز الصحي. كما واظبت على إخباري عن المريضات اللاتي أردن إجراء استشارت واستمررن في السؤال عن موعد عودتي. ظنت أنها بذلك تبقي معنوياتي عالية.

اتسعت مساحة هادئة في رأسي مع كل سلك سحبته من قاعدة الفرشاة. شابه الأمر النوم بعيون مفتوحة وأيدٍ تتحرك فقط، تُكرّر حركاتها مراراً وتكراراً. العمل قوّاني، وأعدّني لشيء وشيك، لا سبيل لتداركه. كما قالت جيسي نصف هامسة لابنتي، يجب تقبل كل شيء بتواضع، حتى شدُّ الفرش السلكية، بعد ذلك يمكننا استعادة قوانا الروحية.

تخلّيت عن القراءة تقريباً. ولم يعد يطاردني لا إسماعيل، ولا وينستون. أراهما الآن أرواحاً مسكينة تائهة تنتمي إلى هذا العالم انتماء معقداً، عالم لا بد أن أغادره عاجلاً أم آجلاً. وما من طريقة يمكنهم مساعدتي بها في لحظة الرحيل.

حاولت توفير الأفضل لابنتي. ذهبت جيسي قبل يومين من وصولها إلى البلدة المجاورة للبحث عن بقاليات. لديها طرقها الخاصة وأماكنها المفضلة. جلبت البازلاء الخضراء، والنقانق

[redacted]

المفلفلـة، ومـن حـين لآخـر، البرتقـال أو الحبـار، وجمـيع أنـواع العجائب الممنوعة التي لا يمكن العثور عليها على رفوف المتاجر. وبمـا أننـي مُجمِّعـة فُرش؛ أمكننـي شـراء أشياء أكثر بكثير مما استطعت شراءه بأجري الشهري في المركز الصحي.

أخبـرتني ابنتـي عـن جنـازة الشـاعر عنـدما جـاءت فـي عطلتـها الربيعيـة. وكـيف تغير بعدها شـيء ما في المدرسة وفي الجو العام.

قالت: «شيء ما على وشك الحدوث. الجميع يستشعرونه، لكن لا أحد يتحدث عنه جهاراً بعد، يا ماما».

استمعت إلى صوتها المتحمس، وتحفظت على هواجسي.

رغبـت جيسـي فـي السخرية من حماس ابنتـي. فصاحت وهي تلـوح بفوطـة الصحون فـوق رأسـها: «الحريـة أو المـوت!». ثـم سكتت، ونظرت إلي بعيون مذنبة.

قلت: «لا تعامليها كطفلة مغفلة يا جيسي». وأضفت: «نحن جميعنا هنا موتى أحياء».

نـاولت جيسـي الأطبـاق بصـمت لابنتـي التـي نشـفتها. اسـتمرت الساعة القديمة بالتكتكة على الطاولة.

*

مـرت السـنة الأخـيرة من المدرسة الثانويـة بسرعة. اسـتدعتني معلمتي الرئيسة قبل الامتحان إلى مكتبها الصغير مرة أخرى.

- لقد درستِ بجدٍّ إلى درجة أنك استحققته.

سألتها: «استحققت ماذا؟».

- يمكننا إعفاؤك من الامتحانات النهائية.

صدمني هذا العرض.

- لماذا يا معلمتي؟

- يشكل الامتحان ضغطاً كبيراً، ومع أخذ مشاكل والدتك بالحسبان، لا يعرف المرء أبداً كيف سيكون رد فعل أعصابك.

شعرت، كما لو أنها صبت عليّ ماءً بارداً. ربما قصدت مصلحتي بالفعل، لكن نزلت بي هذه الشفقة إلى ما دون الأرض التي نقف عليها.

- شكراً لك يا معلمتي، لكنني سأكون سعيدة بتقديم الامتحانات. لا داعي لأن تقلقي بشأني.

قالت المعلمة، وهي تقودني خارج مكتبها الصغير: فكري بالأمر ملياً، وتذكري أن مثل هذه الحلول هي أمر ممكن.

لم أعد إلى البيت بعد المدرسة في ذلك اليوم. ذهبت إلى المنتزه الصغير الذي اعتاد جديّ اصطحابي إليه، عندما كنت صغيرة. لا تزال فيه نفس المقاعد المكسورة، والمسارات المحفرة، وأحواض الزهور المعشوشبة، والحفر الرملية المتبعثرة والأراجيح القديمة. كان عصراً ربيعياً. لا يوجد هناك سوى زوجين عجوزين يتشمّسان. وضعت حقيبتي المدرسية بجانب حفرة رملية، وجلست على الأرجوحة. دفعت نفسي بقدمي، وبدأت أأرجح نفسي أعلى وأعلى. بدأت أشعر بوخز في معدتي. تابعت التأرجح إلى الأعلى. لم تدفعني أمي على الأرجوحة. لم تأخذني إلى الأراجيح قط، ليس لدي تلك الذاكرة الطفولية. كنت أتأرجح لوحدي. حاولت ألا تلامس قدماي الأرض، وألا أقطع حركة التدفق الحر هذه. تغلغل هواء الربيع الدافئ في شعري. سماء بلا غيوم فوق رأسي. شكرت نِعَم العيش هذه، وأخذت نفساً عميقاً.

عدت إلى المنزل متأخرة بعد مشي طويل. حاول جديّ ألا يظهرا قلقهما، مع أنني رأيته في عيونهما. فقد اعتادا على روتيني: المدرسة، والبيت، والواجبات المدرسية، والمدرسة، وزيارات نادرة لرؤية أمي.

أتى النوم سريعاً بعد الواجبات المدرسية ووجبة العشاء. لكنه أتاني بحلم حلمته من قبل. كنت متشبثة بثدي أمي، وأحاول أن

أرضع. الثدي كبير ومليء بالحليب، لكنني لا أستطيع استخراج نقطة واحدة. لا أرى أمي، وهي لا تساعدني، وتركت لوحدي أصارع ثديها. نجحت فجأة؛ فتدفق سائل في فمي. لكنه لم يكن مراً هذه المرة، بل حلواً مثل شاي البابونج مع العسل. رضعت، وشربت، وشربت حتى ارتويت من صدر أمي الناعم الدافئ.

*

«لقد قبلت! قبلت يا ماما!». كادت أن تتعثر فوق كومة الفرش السلكية، وهي تندفع داخل المنزل. أخبرتني بحيوية عن صيفها الغريب في الدراسة خلف الستائر السميكة؛ حتى لا تغريها الشمس بالخروج. وشرحت لي عن المسابقة الوطنية التي يمكن فيها قبول الفتيات من مدارس المدينة في الجامعة؛ شريطة حصولهن على توصيات من الكولخوز والمزارع السوفييتية، وألا تقل درجاتهن عن 3 من 5 في جميع المواد. وحكت لي أيضاً عن المعلم الكبير الذي أنقذ حياتها في امتحان الأدب؛ لأنها لم توفق في صياغة موضوع للدفاع عن صعوبات الحياة المعاصرة في رواية «شبكة الحرير».

انتظرناها، أنا وجيسي، طويلاً. كان الصيف حاراً بلا حدود. على الرغم من مهارتي في شد الفرش السلكية، إلا أنها تسببت بخدوش ناعمة على الدوام في يديّ اللتين تلهبهما الحرارة. نومي المتقلب المليء بالأحلام ذكرني بالصيف الذي حملت فيه بابنتي. ذكريات مشوشة: كنت واقفة قرب النافذة، تجمّع الضوء المتوهج في داخلي خلف قفصي الصدري، واخترقني من دون ألم؛ لينبثق من رأسي. لم أستطع الالتفات رغم كل المحاولات للتأكد من أنه كان نفس الضوء. هاجمتني أفكار بغيضة عن الأطفال على أنهم ثمرة خطيئة. فكرت في الأطفال غير الشرعيين الذين ربتهم أمهات حيوانات برية، أو تُركوا في سلال على أبواب الأغنياء، أو تُركوا ليطفوا فوق مياه النهر. فكرت في الخادمات اللواتي حملن قسراً من أسيادهن، وقفزن في الأنهار، أو توفين على أيدي الأطباء الدجّالين. وتوقفت عند إجهاض النساء أبناء الخطيئة، وفيمن أصبن بالجنون، أو طردن أو حرقن في المحارق.

وها هي: ابنتي. ليست نغلة، ولا ثمرة خطيئة. متعطشة للحياة، تستلقي في حديقتنا، حيث تزهر ورود جيسي متعددة الألوان، وتنشر أزهار الشبت الصفراء عطرها.

قالت: «تعالي واستلقي بجانبي يا ماما. الشمس لطيفة جداً والعشب دافئ».

ذهبت إلى الحديقة، واستلقيت بجانبها. أمسكت يدي.

- أصبتِ بالكثير من الخدوش بسبب هذه الفُرش يا ماما. عليك العودة إلى المركز الصحي، على الأقل حاولي. هل تعرفين ماذا حدث في شوارع المدينة هذا الصيف؟ قال زوج أمك أن الأمر لا يصدق. يبدو أن كل شيء على وشك التغيير، وسوف نتحرر. ربما يمكنك محاولة العودة إلى المدينة أيضاً. أنت طبيبة بارعة على كل حال. وستجدين عملاً بالتأكيد.

أمسكت يد ابنتي بقوة، وقلت: «نعم، الحرية وشيكة جداً، أشعر بها. لم تعد بعيدة».

قالت ابنتي: «لا أعرف أبداً متى تتحدثين من قلبك، ومتى تتحدثين لمجرد أن تقولي شيء ما».

- أرمي النرد للكلمات من القلب. وأسمح لها بالخروج كما يحلو لها.

نادتنا جيسي؛ لتناول الغداء. وضعت بطاطا صغيرة طازجة مع صلصة فطر الشانتريل البري والمخللات المملحة حديثاً.

اقترحت جيسي: «لعلك تحبين الحليب مع هذا. لدينا القليل منه هنا، من بقرة أحد الجيران، محلوب بالأمس».

ردت ابنتي على الفور: «لا، يا جيسي، حتماً لا أريد حليباً».

سألتها: «هل ما زلت تشعرين بالغثيان من الحليب؟».

قالت ابنتي باختصار؛ لكي لا أستأنف الحديث: «لا أعرف، ومن الأفضل ألا أحاول ذلك».

أكلنا ونحن صامتات فترة. ثم بدأت جيسي فجأة في سرد قصة ناسك غادر إلى التلال؛ لأنه شعر بخيبة أمل من الناس ومن عالمهم الذي صنعوه. تحدثت بلهفة كما لو أنها انتظرت جمهوراً فترة طويلة جداً. من أين أتت بهذه القصص؟ من الصحف المرمية أو من الكتب المقطعة والممزقة؟

واصلت ناسية الوجبة الشهية: «لم يأخذ معه سوى عصاه التي كانت أكثر إخلاصاً من كلب. ساعدت العصا الناسك في تسلق التلال شديدة الانحدار، وفي عبور أخطر الممرات، وفي اجتياز أطول الطرق التي مضت به بعيداً عن العالم الذي اختار الطريق الخطأ. ليس للناسك قدرة على إرشاد كيان كبير كالعالم إلى الطريق الصحيح؛ لهذا السبب غادر، على الأقل، ينبغي له ألّا يكون جزءاً من اختيارات الآخرين. ابتعد متكئاً إلى عصاه، بما يكفي ليشعر بغيابه عن العالم. وجد وسط التلال تحت السماء الزرقاء الواسعة هواء يتنفسه بحرية، وطريقاً من دون حراسة تحت قدميه. لكن، تبين أن هذا الانطباع الأول، كما في كثير من الأحيان، خادع؛ لأن الناسك سرعان ما بدأ بالتذمر: أولاً من نفسه، ثم من عصاه. وأمضى عدة سنوات على هذه الحال، حتى أدرك فجأة أن مغادرة العالم، وهو متكئ على عصاه، لا تمنحه الحق باعتبار نفسه ناسكاً. ألقى عصاه الأمينة في التيار عندما وصل إلى جسر فوق نهر سريع التدفق. لم يكن ذلك سهلاً؛ فقد سارا لسنوات عديدة يداً بيد. بدا للناسك الآن أنه تحرر من آخر أعبائه الأرضية. مع كل ذلك، ازداد شعوره بأنه يجر أعباء العالم كلما ابتعد أكثر. والآن عليه حملها بمفرده؛ لأنه أصبح بلا عصا...».

صمتت جيسي. بردت البطاطا وصلصة الفطر في صحنها.

قالت ابنتي: «لديك قصص رائعة يا جيسي!». كنت جالسة إلى الطاولة في المطبخ، بجانبي جيسي تخبر قصتها وقد بردت وجبتها وابنتي إلى الجانب الآخر. انساب كل شيء مني: قصة جيسي، والحديقة خلف النافذة، ودفء ذراع ابنتي، وهي تمسني أثناء إزالتها الأطباق. انساب كل شيء.

*

عندما بدأت فصلي الجامعي الأول في ذلك الخريف، أرسلونا أيضاً إلى أحد الكولخوزات السوفييتية البعيدة للمساعدة في الحصاد. حتى هناك كان الشعور بالتغيير واضحاً. يشرب الجميع - الموظفون الإداريون والعاملون العاديون - من الصباح حتى المساء. حُشرنا في مبنيين متعددي الطوابق في وسط المنطقة. ونؤخذ من هناك للقيام بأعمال الجحيم. وجب علينا جمع الحبوب المتعفنة والجيدة مع بعضها بعضاً، ربما لزيادة الكمية الكلية. وقمنا بالشيء نفسه مع البطاطا، التي جمعت بواسطة حصّادة قديمة سيئة جداً. تحمل الصناديق التي نضع فيها الحجارة ثم البطاطا في الأعلى. في خضم كل هذا، يظل مدير الكولخوز السوفييتي المخمور يصرخ: «عسى أن تذهب هذه المجموعة والطاقم بالكامل إلى الجحيم!».

طال هذا الشهر حتى شعرته سنة. علينا النجاة من هذه المحطة المؤقتة، حيث نجحوا في تركنا عالقين هنا مرة أخرى. قضيت الأمسيات في السرير مع زرادشت ومصباح يدوي صغير. سألني أسئلة موجهة، ليس لدي أجوبة عنها حتى الآن. لا تزال تفوح من يدي رائحة الحبوب الفاسدة، وتومض أمام عيني حصادة البطاطا، وتطقطق الحجارة في صناديق البطاطا أثناء نومي.

في أحد الأيام، غصت بالخطأ في المياه الآسنة في فرن التجفيف، غاصت ساقاي حتى الركبتين. لم يستطع أحد إعادتي إلى مهجعنا في ذلك اليوم. بعد العودة مع الآخرين وقضاء ليلة بلا نوم، ارتفعت درجة حرارتي في الصباح. غطاني زملائي في الجامعة ببطانياتهم، وتركوا لي غلاية الشاي، وخرجوا إلى الحقول. بقيت وحدي.

نمت محمومة وشبه غائبة عن الوعي. جلب لي نومي المتقطع رؤى غريبة: دققت على باب بنايتنا في ريغا، وكان مقفلاً على نحو غريب. تدلّى الناس من النوافذ، لكنهم جميعاً ميتون، السيدة ميغيلا التي مات طفلها في القطار المتجه إلى سيبيريا، حيث

تـدحرج جسـده الصـغير أسـفل جسـر السـكة الحـديدية بـين المحطات، والسيدة فريس التي اعتادت التحدث عن نجاتها من الجلادين النازيين في سيبيريا، والسيدة ميزنسكين التي لم تتحدث عن شيء، وهناك في الأعلى، تدلّت أمي من نافذة تهوية العلية، بيدها شيء ما، أفلتته. سقط مفتاح كبير عند قدمي. ثم أغلقت النوافذ الواحدة تلو الأخرى، واختفى الجميع، بمن فيهم أمي. التقطت المفتاح، نظفته من الغبار العالق عليه، وحاولت فتح الباب. لكن المفتاح علق، ولم يعد بإمكاني تحريكه بأي اتجاه. أردت بشدة الدخول إلى شقتنا، فربما يتناول جديّ العشاء الآن. وقد تكون أمي هناك أيضاً؛ لأنها ألقت لي المفتاح. لكن الباب لا يفتح. استيقظت ملفوفة ببطانيات، وأتصبب عرقاً في غرفة رطبة.

استغرق مرضي بعض الوقت حتى تراجع. سمحوا لي بالعودة إلى البيت. واستعدت هناك عافيتي تدريجياً برعاية جدّتي وزوجها، على الرغم من معاودة المرض لي كثيراً خلال السنة الأولى من الجامعة. مرت الأيام رتيبة. ولم تستطع سوى جبال كتبي نقلي إلى حياة مختلفة. زارتنا جيسي بين الحين والآخر محملة بتحايا والدتي وهداياها.

نجحت في الحصول على معدل جيد في فصل الربيع، مع أنني تكبدت العواقب. فقد قرأت حد الإعياء، كنت أشعر بالغثيان فجأة، عندما أنغمس في قراءة كتاب ما، وأضطر إلى الركض إلى المرحاض. الحالة شبيهة بردة فعلي على الحليب في طفولتي، غير أن السبب لم يكن أن شيئاً لم يعجبني في الأوديسة أو في الأخوة كارامازوف، بل لأن الكلمات جعلت رأسي تدور.

أنهيت السنة الأولى الآن. بدأ الصيف مرة أخرى، وسوف أبقى مع والدتي. لم نر بعضنا البعض أبداً خلال شتائي الطويل بسبب المرض والقراءة.

جاءت لمقابلتي في محطة القطار. وقفت بجانب مشتل الزهور، غريبة وبعيدة. مثل ذلك الوقت الذي جاءت فيه لمقابلتي في

المدرسة، ولم نعرف كيف نتصرف. تعانقنا. غطت يدي أمي جروح عميقة اعتادت عليها. حاولت النظر إلى وجهها الذي رأيته آخر مرة في كابوسي، عندما رمت لي المفتاح من نافذة العلية.

مشينا صامتتين كالعادة.

قادنا الطريق، أنا وأمي، نحو حياة جديدة، تحيط بنا دلالات أوائل الصيف التي وعدتنا بأن كل شيء سيصبح أفضل. كان طريقنا جميلاً بالفعل: حيتنا شقائق النعمان البيضاء والزرقاء من حواف الخنادق، وكانت السماء صافية، وزقزق وقواق في مكان ما من بعيد، وشجيرات البتولا لا تزال في ذلك الخضار الخالص البهي المبهر للعيون. اختلط دخان سيجارة والدتي مع هواء الربيع منبئاً بشيء ما مجهول، شيء جديد ومغر، أزاح حزن الفراق، وأراح روحي المتعبة.

كان حقا صيفاً مدهشاً. ضحك ومزاح، نشد ثلاثتنا أسلاك الفرش بسرعة. أردنا جمع مال يكفي للإنفاق على جميع أنواع الأشياء الصغيرة. صاحت جيسي عندما عدنا بكنوز للروح والجسد: «مثل المن والسلوى من السماء».

طلبت من والدتي أن نذهب للسباحة في النهر في وقت متأخر من إحدى ليالي منتصف الصيف. لم يكن هناك أحد على الضفة؛ لذا بإمكاننا السباحة عاريتين. تعرت أمي خفية، كما لو أنها خجولة. ولكنها قالت حال نزولنا إلى الماء: «دافئ كالحليب». عمنا سوية فترة. ألقى ضوء القمر مساراً وضاءً عبر المياه. سبحت أمي فيه، وسبحت بجانبها. سبحنا حتى خارت قوانا، ثم عدنا إلى الضفة.

*

غادرت ابنتي في نهاية شهر آب/أغسطس. كان ذلك الخريف مطيراً ورطباً للغاية. اضطررنا أن نبقي موقد الحطب مشتعلاً باستمرار حتى لا تتجمد أيدينا ونحن نشد الفرش السلكية. أتت جيسي بأخبار مقلقة من العالم الخارجي. كل شيء على وشك

التغيير بالفعل. الحرية قريبة جداً. تحدثت في تلك الأمسيات مثل نبيّة.

- ربما حان الوقت لترك العمل في شد الفرش السلكية؟

أجبتها بسؤال: «هل تعتقدين، يا جيسي، أن ثمة متسع للحرية هنا؟».

نظرت إليّ جيسي كما لو أنني حالة ميؤوس منها، وصرخت: «إلى متى ستبقين على الحياد؟».

لم أستطع في تلك الليلة إخراج كلمات جيسي من رأسي. لم أستطع النوم، وجاءتني رؤى حول طريق طويل تتحرك ببطء على امتداده حشود من المعاقين، جرجروا أنفسهم، وهم يترنحون إلى الأمام مدفوعين بحلم محير ما. مع كل ذلك عرجوا نحو الحياة. لم أكن في ذلك الطريق. لم أر نفسي هناك. وصل الطريق إلى مفترق، أحد المفرقين قاد المعاقين على طول طريق أرضية، وكان المفرق الآخر درب التبانة إلى السماء. سيكون هناك متسع كبير يا جيسي. سيكون هناك متسع للحرية. سوف تلتئم الحياة، وتتحرر حيواتنا في العالم الواسع.

مضى الوقت بسرعة كبيرة. كنت أجلس أحياناً في غرفتي أياماً وأياماً، أدخن وأحدق، صار الصباح ظهراً، والظهر مساءً، والمساء ليلاً. لاحظت جيسي أنني أذوي. فقررت المجيء والعيش معي. نتناول، في الأيام التي أكون فيها نشيطة، وجبة فطور متأخرة، ونشد مجموعة من الفرش، ثم نحضر طعام الغداء. تذهب جيسي في المساء للقيام بأعمال التنظيف في المركز الصحي. حاولت أن أقرأ شيئاً ما، لكن الحروف زاغت أمام عيني، ولم يعلق منها شيء، لم يبق معي شيء.

نتحدث عن ابنتي عندما تعود جيسي، انتظرناها. يبدو أن هذه السنة الثانية أصعب من الأولى. عليها أن تدرس، وتقرأ كثيراً إلى درجة لم يعد لديها سوى القليل القليل من الوقت خارج منهاجها؛ للمجيء إلينا ورؤيتنا. تكلمت جيسي؛ لتسألني إذا كنت أرغب في

رؤية أمي وزوجها. يمكننا استجماع طاقتنا، والزحف خارج وكر الفرش السلكية والذهاب إلى المدينة. لكن، لم يكن لدي مثل هذه الرغبة. أشعر أحياناً أن قواي مستنزفة فعلياً. لا شيء يؤلمني. وحرارتي ليست مرتفعة، مجرد حالة غريبة من انعدام الوزن.

لم أستطع النوم ليلاً في أغلب الأحيان. تحرس جيسي حبوبي المنومة مثل ضابط السجن، وتوزعها بالقطارة مثل مناولة القربان. تلك الحبوب البيضاء الصغيرة هي مخلصي وفرحي؛ حبة ونصف أو حبتان تكفيان لإبعادي عن طريق المعاقين الأرضي، حتى ولو للحظة واحدة فقط.

جاءت ابنتي في عيد الميلاد بضعة أيام فقط، لكنها أتت. أحضرت معها هدايا: حاكت أمي قبعة لي، وقفازات لجيسي. وصنع زوج أمي زوجاً من الشمعدانات بيديه. وقدمت ابنتي ملاك كروشيه لكل واحدة منا، أنا وجيسي، اشترته من زاوية أحد الشوارع في المدينة، من امرأة عجوز يحيطها هواء ملائكي أيضاً.

ابنتي هي أعظم هدية عيد ميلاد لي ولجيسي. ازدادت جمالاً وجدية ونضجاً. ربما كانت في حالة حب، لكنها لن تتحدث عن ذلك. تحدثت بدلاً من ذلك عن الكتب والنظريات، وطلبت مني استعارة رواية موبي ديك، بالإضافة إلى كتاب وينستون الذي أخفته جيسي مع الحبوب المنومة.

أخبرتني عن والدتي التي تدللها، وعن زوج أمي الذي عانى من خفقان قلب مفاجئ، لكنهم استدعوا سيارة إسعاف في الوقت المناسب، وعاد كل شيء إلى ما يرام.

ذهبت بعد العشاء إلى غرفتها. حيث أعدت لها جيسي السرير، وأشعلت موقد الحطب. جاءت إلى غرفتي في منتصف الليل تقريباً. جلست على سريري. وأمضينا فترة صامتتين كالعادة.

قالت في النهاية: «هل تتذكرين كيف رسمت أماً وطفلة يا ماما، تلك الرسمة التي رقصتا فيها بسعادة، وهما مرتبطتان بحبل

سري؟».

قلت: «ربما».

- لدي شعور غريب بأن هذا ليس وضعنا. بالنسبة إلينا قُطع الحبل، مع ذلك يبدو أنك لا زلت تحملينني به. نحن لا نزال مرتبطتين بنوع من الحبل الشفاف لكن القوي للغاية، وأنا أتمايل معك، حيثما ملت.

لم تنتظر جوابي، بل سحبت البطانية، وقبلتني، وتمنت لي ليلة سعيدة، وغادرت الغرفة.

*

لم أزر أمي مرة أخرى حتى الربيع. زارتنا جيسي في المدينة مرتين، ولم تخف قلقها بشأن أمي. فقد أصبحت تجلس في غرفتها ساعات أطول وأطول، تحدق في نقطة واحدة خارج النافذة، واصفر سقف غرفتها من الدخان. حملت نبرة جيسي عتاباً مبطناً لعدم زيارتي لها كثيراً.

قالت جيسي: «لكن تعالي هذا الصيف. هذا الصيف بالتأكيد. سيكون هذا حافزاً لها لاستجماع قواها والاتصال بالحياة مرة أخرى».

بدا لي أنني أحاول وصل أمي بالحياة منذ ولادتي؛ بكوني رضيعة عاجزة، وبكوني طفلة محدودة الفهم، وبكوني مراهقة خائفة، وبكوني شابة. وبدا أنها تسعى دائماً لإطفاء نور حياتها؛ لذلك اختلفنا، ووصلنا دائماً إلى طريق مسدود. مع أن الضوء سينطفئ ذات يوم إلى الأبد.

استعر صيف عام 1989 في الشوارع. تحول الناس إلى أناس مبتهجين وسعداء، مسلحين بالزهور والأغاني الشعبية والأعلام الصغيرة الأحمر-الأبيض-الأحمر. غمرت الحياة الحدائق والساحات والطرق والحقول والمدن. تمنيت لو اجتاح ذلك غرفة أمي الصغيرة المليئة بالدخان كالموجة التاسعة، وغسل كل ظلم

التاريخ والمصادفات التعيسة، بما فيها الولادة في ذلك الزمان والمكان بالضبط، تمنيت أن يجتاحها، ويبعث الحياة فيها.

لكن أمي لم تغادر غرفتها. لم تغادرها حتى عندما أخبرناها، أنا وجيسي، ونحن نبكي من السعادة والعجز: أن عليها التكاتف مع الناس الذين يرغبون بالتحرر في جميع أنحاء بلدان البلطيق الثلاث. وأننا سنشكل سلسلة بشرية حية يكون لكل شخص مكانه فيها. سيصبح كل واحد منا جزءاً من هذا الجسر البشري، وسنمد أيدينا إلى بعضنا بعضاً، ولن يتمكن أحد من تدميرنا مرة أخرى.

لكن أمي لن تخرج. وقفنا أنا وجيسي جنباً إلى جنب مع كثيرين غيرنا، وبكينا ليس فرحاً بالحرية الوشيكة، بل حزناً على والدتي التي رفضتها.

غادرت إلى المدينة في وقت أبكر مما هو مخطط له. عرفت أنني ألقي الحمل كله على كتفي جيسي. ابتعدت مع اجتياز كل محطة عن غرفة أمي الخانقة، حيث حدقت من خلال النافذة نصف المفتوحة في حديقة شهر آب/أغسطس، أو لعلها حدقت ببساطة في نقطة ما في البعيد، ولم تر شيئاً.

مر علينا شهر أيلول/ سبتمبر في قاعات المحاضرات، وكأننا منومون مغناطيسياً. لم يتحدث أحد عن الأدب أو عن القواعد اللغوية التاريخية للبلطيق. تصرف الجميع - المحاضرون والطلاب - كما لو أنهم تحرروا من سجن. الشيء الوحيد المهم، هو: ما يحدث في الخارج. كان التكتل السوفييتي القوي يترنح وينهار، ولا أحد يمكنه معرفة العواقب، هل ستكون دماراً زلزالياً، أم ستكون كما جاء في الإنجيل عندما خلق الله عالماً جديداً جميلاً من العدم. هل ستكون جنة أم جحيماً؟

في أحد الأيام المشمسة من شهر شهر تشرين الأول/ أكتوبر عايشنا بشكل مطلق مؤتمر الجبهة الشعبية(**). طالب الناس بعودة أمهم، أرض ميلادهم. لم تخف جدتي وزوجها دموع فرحهما.

اتصلت جيسي في المساء. لم تتمكن من الكلام، خنقت الدموع كل كلمة. لقد ماتت أمي، وعلي العودة بسرعة.

وصلت في آخر رحلة قطار. لاقتني جيسي في المحطة. لقد تقلصت إلى مخلوقة صغيرة، وحفر وجهها الألم والدموع. مشينا على طول الطريق المليئة بالأوراق المتبعثرة. كان مطلع تشرين الأول/أكتوبر دافئاً على نحو غريب.

نشجت جيسي: «لا أعرف، لا أعرف ماذا فعلت بنفسها. عدت من المركز الصحي، وكانت راقدة هناك، ميتة. جاءت طبيبة ووثقت وفاتها». بكت جيسي كطفلة.

مشيت بجانبها، ولم أستوعب بعد. بدا خبر وفاة أمي غير حقيقي، مختلق. على الرغم من أن نحيب جيسي، وكل صوت أصدرته، يشهد على حقيقيّته.

حملت جيسي أمي إلى المستودع بمساعدة جيراننا. رقدت على الطاولة الطويلة بمعطفها المنزلي القديم وجواربها الصوفية، وشعرها المربوط على شكل ذيل الحصان. على الأرجح أنها لم تمشطه.

لمست يد أمي. كانت باردة ومغطاة بالخدوش بسبب شد الفرش السلكية. أمسكت يدها، وحاولت أن أدفئها بيدي، لكن ذلك لم يحدث فرقاً.

قلت: «سخني بعض الماء يا جيسي، دعينا نغسلها».

حللت أزرار معطف أمي في ضوء المصابيح والشموع الخافتة. ساعدتني جيسي في تعريتها. شعرنا أن والدتي تشعر بالبرد لا محالة؛ لذا غطيناها حتى خصرها. أحضرت جيسي الماء الدافئ والكحول والمناشف. بللت المناشف ونظفت أولاً وجه أمي بعناية. لا تزال بقايا نوم عالقة في زوايا عينيها، وكسرة خبز في زاوية فمها. شفتاها جافتان ومشققتان. ثم غسلت ثدييها اللذين لم أرهما سوى مرة واحدة في أثناء السباحة ليلاً، عندما نزلنا إلى النهر عاريتين. «كانا باردين، أبيضين مع نمش صغير متناثر.

96%

لمستهما، نهضا من حلمي دافئين ومليئين بحليب الأم، وتدفق منهما حليب منعش لا ينضب. أرحت رأسي على صدر أمي، وانهمرت دموعي الحارة والمالحة على جسد أمي البارد.

عدت إلى ريغا في صبيحة اليوم التالي. ثمة الكثير للقيام به قبل الجنازة. تقاسمت جدتي وزوجها المهام. عملنا معاً، محاولين إخفاء عواطفنا. بقيت جيسي مع أمي، وبكت عنا جميعاً.

انساب هواء تشرين الأول/أكتوبر الدافئ على غير العادة من النافذة المفتوحة إلى المطبخ، حيث تناولنا العشاء في صمت. نظرت إلى خديّ جدتي الشاحبين، وإلى جدي الذي انحنى على صحنه؛ حتى لا نرى دموعه التي تنهمر في طعامه.

علينا تشييع والدتي غداً. طلبت إليّ جدتي بعد تنظيف الطاولة، أن أبقى قليلاً في المطبخ. عادت بعد قليل ومعها حزمة صغيرة ملفوفة بقطعة قماش بيضاء ملطخة ببقع من الصدأ، فكتها.

فردت جدتي الحزمة الصغيرة على طاولة المطبخ تحت ضوء المصباح الشاحب. كانت القميص الأول لطفلة مصرور في داخله حدوة حصان مع مسمارين؛ كي تكون الرضيعة محظوظة في الحياة. القميص لأمي، عندما كانت أصغر من أصغر رضيع. وحدوة الحصان حدوة محظوظة؛ لأن جدتي وجدتها لها على الطريق الذي دمرته الحرب، وبهذا قد تكون حياتها آمنة.

كانت جنازة غريبة. جرت بصمت من دون أي شخص يقود والدتي إلى العالم الآخر وفقاً للعادات اللاتفية القديمة. غطت شمس تشرين الأول/أكتوبر وأوراقها الذهبية الطرقات. كنا أربعتنا في المقبرة: جدتي، وزوج جدتي، وجيسي، وأنا. وعدد لا حصر له من النساء غير المعروفات بالنسبة إلينا، انحنين ووضعن الزهور على القبر. غطاء من الأقحوان الأحمر الغامق، ثم الأبيض، ثم الأحمر الغامق.

أضأت أنا وجيسي الشموع، عسى أمي ترقد في سلام. عانقتني نساء كثيرات، من دون كلمة واحدة. لكن شابة من عمري تقريباً

اقتربت مني، وتحدثت باللغة الروسية.

ابتسمت وقالت: «أمي سيرافيما تدعو أمك والدي؛ لولا أمك لما ولدت أنا أبداً. كان ذلك في لينينغراد. نحن نعيش هنا الآن. ماتت سيرافيما، لكنها كانت تقول لي دائماً، أنه يجب عليّ إيجاد أمك. للأسف، لم أتمكن من ذلك إلا الآن».

بقيت تدور هذه الجملة في رأسي: «كانت أمك أبي». استلقيت في غرفة أمي في المساء. أحضرت جيسي زهور الخريف. كل شيء نظيف ومرتب، لكن بقي على الطاولة منفضة سجائرها مع عقب السيجارة الأخيرة وكوب قهوة نصف مشروب. نظرت إلى السقف، حيث فعلت جيسي أفضل ما في وسعها. فركت بقع الدخان الصفراء الداكنة، وتمكنت من تنظيفها كلها تقريباً باستثناء بقعة صغيرة في المنتصف.

تمددت على سرير أمي. عطرها هنا وليس هنا، ربما غيرت جيسي الشراشف. شعرت بشيء صلب ملفوف بورق تحت الوسادة، فتحته، وسقطت في حضني طفلة صلصالية صغيرة. تذكرتها فجأة كلمة بكلمة، كما لو أنها بالأبيض والأسود، قصة بسيطة لا يمكن التحقق حتى من أصغر حقيقة فيها؛ لأن لا دليل على وجودها إلا في ذاكرتي. أردت بعث الحياة في جنين من طين.

خربشت أمي على الورقة:

أنت، يا من وهبت الحياة للمطبب، طبب روحي من الشهوة والمشاعر الآثمة. أرشدني إلى ميناء الندم، أنا المرمية في قلب عواصف الحياة. نجّني من النار الأبدية، والروح الشريرة والجحيم.

جاءت جيسي إلى شقتنا في المدينة بعد حوالي شهر من الجنازة. واصلت العيش في منزل والدتي، والاعتناء بالحديقة، وقبل كل شيء الذهاب إلى المقبرة كل يوم تقريباً.

جهزنا العشاء بعد طقس حوض الاستحمام الذي تقول عنه جيسي كلمة واحدة: سماوي. لقد بذلت جدتي جهداً خاصاً: لحماً

مشوياً مع الخضار، وقشدة القمح مع كريمة الشوكولاتة للتحلية. كنا نرتب الطاولة عندما صرخ جدي من الغرفة الأخرى، حيث شُغِّل التلفاز.

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً! تعالوا بسرعة، بسرعة!

هرعنا إليه مذعورات. ظهر في التلفاز آلاف الأشخاص وهم يتسلقون جدار برلين ويهدمونه قطعة قطعة. وهناك على الشاشة، ساد فرح عارم، ونشوة، وصوت الصراخ والدموع المنهمرة.

كرر جدي مراراً وتكراراً كما لو أنه مذهول بالشاشة: «هذا مستحيل! مستحيل!».

لكن ذلك حدث أمام أعيننا مباشرة. عيون أربعتنا: أنا، وجدتي، وزوج جدتي، وجيسي. لم تغب سوى عيون أمي.

أمسكت جيسي رأسها، وقالت: «سنكون أحراراً حقاً. لماذا لم تستمع إلى كلماتي؟».

(*) كولخوز: أحد أشكال المزارع الجماعية في الاتحاد السوفييتي. (م).

(**) منظمة سياسية ظهرت في لاتفيا في نهاية الثمانينات، وساهمت في الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي. (م).

نورا إكستينا

ولدت نورا إكستينا خلال عام 1969 في مدينة ريغا عاصمة لاتفيا. درست في جامعة لاتفيا قبل انتقالها إلى نيويورك. أسهمت بعد عودتها إلى دول البلطيق في إنشاء مركز الأدب اللاتفي. نشرت روايتها الأولى «احتفال بالحياة» في عام 1998، وكتبت بعد ذلك أكثر من عشرين كتاباً. فازت بالعديد من الجوائز، منها: وسام النجوم الثلاثة للمساهمات الأدبية، وجائزة جمعية بلدان البلطيق للآداب. رشحت أحدث رواياتها، حليب سوفييتي، بجائزة الأدب اللاتفي السنوية لأفضل نثر في عام 2016، بالإضافة إلى جائزة جينتارز سودمز (Dzintars Sodums) للإبداع.

مارغيتا غيليتيس

ترجمت مارغيتا غيليتيس بعضاً من أجمل الشعر والنثر اللاتفي إلى اللغة الإنكليزية، منها: «رواية بحذاء الرقص في الثلوج السيبيرية» للكاتبة ساندرا كالنيت (Sandra Kalniete)، ورواية «الأصابع الخمس» للكاتبة مارا زاليت (Māra Zālīte)، ورواية «حليب سوفييتي» التي هي أولى ترجماتها لدار بيرين للنشر.

ضحوك رقية

مترجمة سورية، تخرجت في جامعة دمشق - كلية الآداب - قسم اللغة الإنكليزية.

صدر لها:

- رواية المعضلة رقم 22 للكاتب الأمريكي جوزيف هيلر.

- النسوية والقومية في العالم الثالث (ترجمة مشتركة)

- مقالات في النسوية (ترجمة مشتركة)

- المرأة والحرب (تدقيق).

- العديد من المقالات والأبحاث المتعلقة بالمرأة.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع